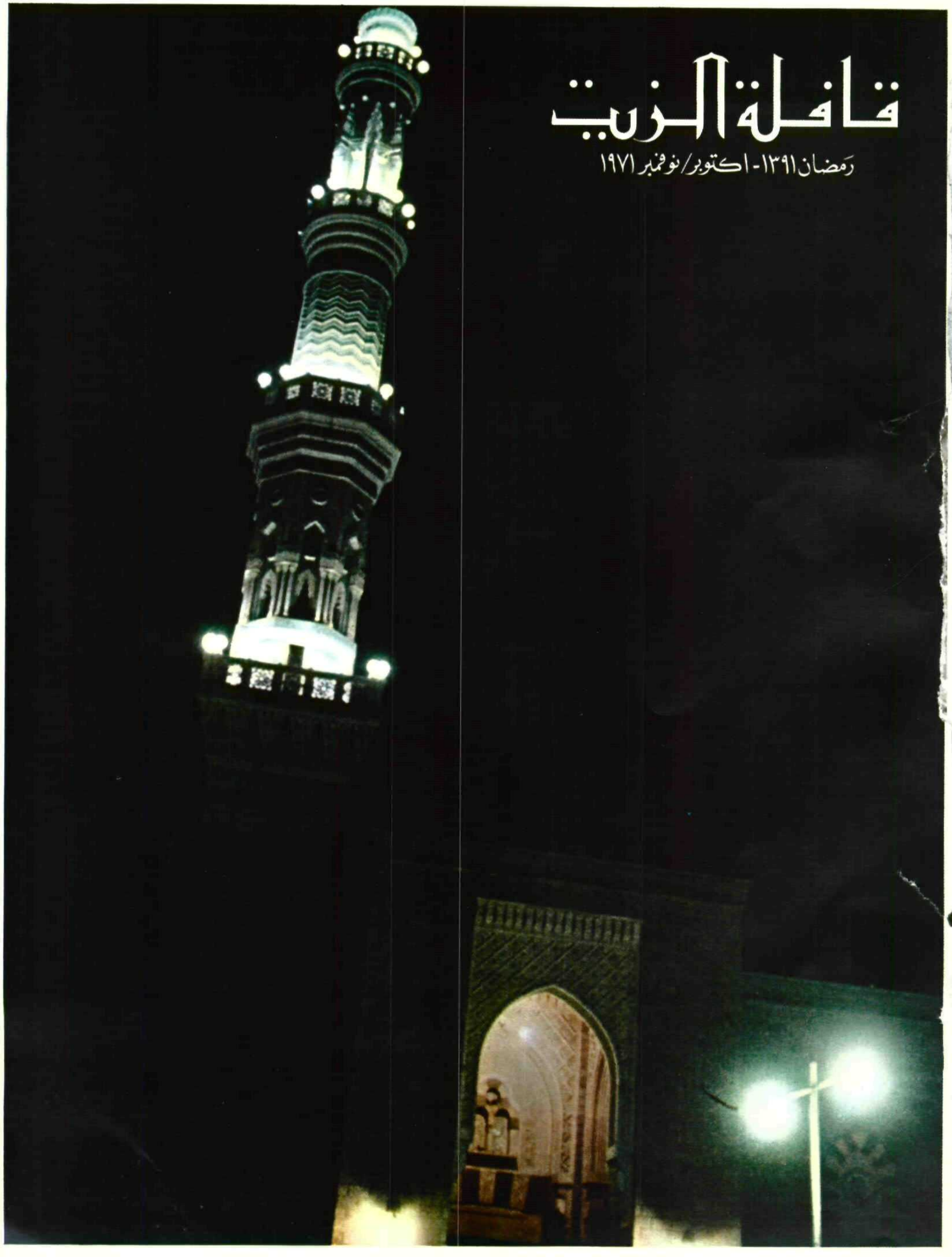

قافلة الزيت
رمضان ١٣٩١ - اكتوبر/نوفمبر ١٩٧١



المكتبات مراجع خصبة يجني منها المثقفون ثمار العلم والمعرفة.

(راجع مقال: المكتبات مراكز إشعاع ثقافي) تصوير: علي محمد خليفة

بسم الله الرحمن الرحيم

قافلة الزيت

العدد التاسع المجلد التاسع عشر

تصدر شهرياً عن شركة الزيت العربية الأمريكية لموظفيها
ادارة العلاقات العامة - توزع مجاناً

محتويات العدد

- كل ماينشر في "قافلة الزيت" بغير أقلام هيئة التحرير يعبّر عن آراء الكتاب أنفسهم ، ولا يعبّر بالضرورة عن رأي "القافلة" أو عن اتجاهها .
- يجوز إعادة نشر المواضيع التي تظهر في "القافلة" دون إذن مسبق على أن تُذكر كمصدر .
- لا تقبل "القافلة" إلاّ المواضيع التي لم يسبق نشرها ، وهي تؤثر تلقّي النسخة الأصلية مطبوعةً على الآلة الكاتبة ، ومُنقّحة
- يتمّ تنسيق المواضيع في كلّ عدد وفقاً لمقتضيات فنية لا تتعلّق بمكانة الكاتب أو أهمّية الموضوع .
- تنقيح المقالات على النحو الذي تظهر فيه يجري عادةً وفق ظروف يقتضيها نهج "القافلة" .

المدير العام مصطفى حسن الخان — المدير المسؤول علي حسن قناديلي
رئيس التحرير منصور مدني — المحرّر المساعد عوني ابو كشك

العنوان : صندوق البريد رقم ١٣٨٩ - الظهران - المملكة العربية السعودية

الغلاف: على صورة الغلاف

في شهر رمضان المبارك تعمر بيوت الله ويشيع الايمان في القلوب

تصوير سعيد الغامدي

بسم الله الرحمن الرحيم

«يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ۝ أياماً معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون ۝ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون ۝

قرآن كريم

«إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إني صائم»

«من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»

«إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب النار وصفدت الشياطين»

حديث شريف

هذا الشهر المبارك

بقلم الاستاذ
عبد القدوس الانصاري

لشهر رمضان المبارك ميزات بارزات على سائر الشهور . وهذه الميزات الكبيرة الخالدة التي اختص الله بها شهر الصيام وحباه فضلها المبين دون سائر شهور السنة هي متعددة الجوانب . منها أنه الشهر الوحيد الذي ورد ذكره في « الذكر الحكيم » نصًّا . قال الله تعالى في محكم كتابه : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » وبقية شهور السنة ليس بينها من ذكره القرآن نصًّا ، كما ذكر شهر رمضان .

ومن مزاياه البارزة أن الله تعالى مدحه بمحكم كتابه في الآية السابق ذكرها . قال الامام ابن كثير في تفسيرها : يمدح الله شهر الصيام من بين سائر الشهور ، بأن اختاره من بينهن لانزال القرآن العظيم . وكما اختصه بذلك قد ورد الحديث بأنه الشهر الذي كانت الكتب الالهية تنزل فيه على الأنبياء .. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنزلت صحف ابراهيم في أول ليلة من رمضان ، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان ، والانجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان ، وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان » . (١)

ونزول القرآن في شهر رمضان ، كان جملة واحدة الى سماء الدنيا فجعل في بيت العزة ، ثم أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم في عشرين سنة لجواب كلام الناس . (٢)

ومن مزايا هذا الشهر المبارك أن الله جلت عظمته وحكمته ، اختصه من بين سائر شهور السنة بفرضية الصيام في دين الاسلام ، فيصوم فيه — فرضا محتما — المؤمنون البالغون العقلاء القادرون غير المعذورين بالأعذار التالي بيانها ، ثلاثين يوما ، أو تسعة وعشرين اذا كان الشهر ناقصا . والصوم في رمضان ليس صوم وصال أي صوم النهار مع الليل معا ، فذلك ما لا يطيقه الانسان . والله لا يكلف الناس الا ما في وسعهم ، وانما يجب الصوم في بياض نهار رمضان فقط ، أي من السحر الى غياب الشمس .. أما الليل فيباح فيه للمسلم الصائم كل ما يباح له في غير شهر الصوم من أكل وامتاع وشرب وما الى ذلك .

ومن مميزات شهر رمضان المبارك التي لا تنسى انه كان شهر الفتوح الاسلامية الأولى ، ففيه كانت غزوة بدر أول فتح حربي في الاسلام وفيه كان فتح مكة السلمي وكان هذا الفتح فتح الفتوح في الاسلام .

والمعذورون في نظر الاسلام ، من عباد الله البالغين ، منهم من اذا أبيح له الفطر لعذره الواضح ، فيجب عليه القضاء اذا زال هذا العذر عنه . ومن هؤلاء : المسافر والمريض الذي يرجى برؤه ، والحائض اذا زال عنها الحيض ، والنفساء اذا انتهت المدة المعينة لنفاسها ..

ومن « المعذورين » طائفة رفع عنهم الصيام رفعة واحدة ، لأن أعذارهم لا تنقضي ولا تنقطع .. وهؤلاء هم المرضى العاجزون عن الصيام في أمراض لا يرجى برؤها ، والشيوخ الهرمون الفانون. وعلى هؤلاء — على تفصيل واختلاف بين العلماء — فدية طعام مسكين عن كل يوم .

وصيام المسلم القادر البالغ لشهر رمضان هو في صميم مصلحته الدنيوية والدينية .. فالمرء يتناول مختلف الأطعمة والأشربة بدون توقيت أو ميزان — على الأغلب — طيلة شهور السنة الأحد عشر ، فيسوء هضمه ، وتتضرر صحته تضررا يلمسه هو ويشعر به في دخيلة نفسه ويشاهده من يعرفه على قسمات وجهه وفي تلافيف جسمه .. فاذا حل شهر الصيام ، كان هذا الشهر الحد الفاصل لما يتناول وما لا يتناول ، وكان فيه تحديد ما يأكل ، فيأكل أكلا خفيفا يقيم صلبه — هذا اذا تمسك بتعاليم الاسلام — ويتباعد عن الأكلات الدسمات التي توجب التخمة وامتلاء البطن وانتفاخ الأمعاء .. فيضمر جسمه المترهل وتشتد عضلاته ويعود اليه ما افتقده من صحة أثناء شهور العام الأخرى ..

ويزيد هذا « المحصول الصحي » نضرة واشراقا وائتلاقا ، في كيفية وكمية ، بما يقوم به أثناء الليل من صلاة التراويح ، وبما يقلله أثناء النهار من نوم ، وبما يكثره فيه وفي الليل من قراءة القرآن بلسم الأرواح وحادي البهجة والمتعة الفكرية. فتكون هذه الأعمال كلها روافد لأمنه الصحي والروحي ومتعته .. فاذا هو مشرق الجسم بالصحة ، مشرق الروح بالفرحة ، والايمان والعمل الصالح المبرور والعبادة الخالصة لوجه الله : « الصوم لي وأنا أجزي به » .. كما ورد في حديث قدسي معروف.

وهكذا يجمع الصوم للمسلم الصائم مزايا جمة ، لصحته وقوته ، وعصمته ، ونفحته بأريج سماوي عطر من أريج الملائكة الأطهار في ساعات النهار .. فالملائكة من ميزاتهم أنهم لا يتناولون طعاما ولا شرابا ، ولا يفترون عن ذكر الله وتسبيحه ..

وبعد ، فان في صيام شهر الصيام « رياضة مزدوجة » .. فيه رياضة روحية تصهر كل الآثام وتكبح جماحها ، وتزرع في قلب المرء مزايا سامية ، يتحول بها من السلبية الى الايجابية ، ومن الضحالة الى العمق والالهام .

وفيه كذلك رياضة جسدية بارزة ، اذ يجعل الصيام المرء محدود المطعوم والمشروب واذ يخصص وقتا معينا لاحجامه عن تناول المطعوم والمشروب ، ووقتا آخر معينا لتناوله ، كل ذلك بنظام في منتهى الدقة والحكمة كيما يجعل للانسان سبيلا قويما لا حبا الى حماية صحته وتفكيره من غوائل الانهماك والافراط فيما قد يعود عليه بالضرر .

ان شهر الصوم اذن هو « دورة رياضية سنوية قدرها الله لعباده المؤمنين » ووقت لهم زمنها ، وحدد لهم كيفيتها وكميتها وتراتيبها رحمة بهم ولطفا ، ونعمة عليهم وعطفا .

ومن كمال عنايته بالمؤمنين من عباده أنه قرر لهم بعد استكمالهم اجراءات هذه الدورة الرياضية السنوية الروحية القيمة ، ذات الأثر العميق والايجابي في نفوسهم ومعنوياتهم وذاتياتهم وأرواحهم ، يوم مهرجان حافل بالافراح والبهجة والمتعة أباح لهم فيه كل ما كان محرما عليهم في أنهر(٣) رمضان من مباحات الأمور في شرعه الحكيم ، وحرم فيه عليهم ما كان واجبا عليهم أداؤه ، بالأمس في بياض تلك الأيام من رمضان ، الا وهو «الصوم» . وهذا المهرجان ، مسك الختام لشهر الصيام ، هو « يوم عيد الفطر الميمون » .. وكل عام ليحتفل المسلمون بشهر رمضان ، وليفرحوا بعد صيامه ، بمسك ختامه ، وزهرة نظامه ■

---

(١) و (٢) تفسير ابن كثير (٣) جمع نهار .

العقل والفكر في القرآن الكريم

بقلم الاستاذ احمد عبد الرحيم احمد عبد الرحمن

من أوضح سمات القرآن الكريم التي لفتت نظر الباحثين والدارسين في القرآن أشاداته بالعقل ، وتوجيه النظر الى استخدامه للوصول الى الحقيقة وما يفيد المجتمع الانساني في مسيرته عبر الحياة .

وقد دعا القرآن بطريق مباشر وغير مباشر الى تعظيم العقل والرجوع اليه . والعقل في اللغة العربية ضد الحمق ، وسمي العقل عقلا لأنه يعقل صاحبه عما لا يحسّن ، وهو القوة المتهيئة لقبول العلم .

ويقال للعلم الذي يستفيده الانسان بتلك القوة « العقل » أيضا ، ولهذا قيل : « العقل عقلان فمطبوع ومسموع . ولا ينفع مسموع اذا لم يك مطبوع ، كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع » .

والى الأول يشير ما روي في بعض الآثار : « ما خلق الله خلقا أكرم عليه من العقل » ، وكذا « أول ما خلق الله العقل » .

والى الثاني يشير ما روي : « ما كسب أحد شيئا أفضل من عقل يهديه الى هدى أو يرده عن ردىء » . وهذا العقل هو المعني بقوله تعالى **« وما يعقلها الا العالمون »** .

ويحرص القرآن على تأكيد تعظيم العقل والرجوع اليه حرصا يلفت النظر ويثير الاهتمام. ويشير القرآن الى العقل ومعانيه المختلفة ومشتقاته ومترادفاته في نحو ثلاثمائة وخمسين آية ، مستخدما لذلك كل الألفاظ التي تدل عليه أو تشير اليه من قريب أو بعيد من : التفكير ، والقلب ، والفؤاد ، واللب ، والنظر ، والعلم ، والتذكر ، والرشد ، والحكمة ، والرأي ، والفقه .. الى غير ذلك من الألفاظ التي تدور حول الوظائف العقلية على اختلاف معانيها وخصائصها وظلالها ، مما يعتبر ايحاءات قوية بدور العقل وأهميته بالنسبة للانسان .

والقرآن لا يكتفي بهذا بل يذكر العقل في مقام التعظيم ، والتبين الى وجوب العمل به والرجوع اليه .

والاشارة الى العقل لا تأتي عارضة ولا مقتضبة في سياق الآية ، بل هي تأتي في كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة .

وتتكرر في كل معرض من معارض الامر والنهي التي يحث فيها الانسان على تحكيم عقله أو يلام فيها الفكر على اهمال عقله .

ولا يأتي تكرار الاشارة الى العقل بمعنى واحد من معانيه التي يشرحها النفسانيون من أصحاب العلوم الحديثة ، بل هي تشمل وظائف الانسان العقلية على اختلاف أعمالها وخصائصها . وتتعمد التفرقة بين هذه الوظائف والخصائص في مواطن الخطاب ومناسباته .

فلا ينحصر خطاب العقل ، في العقل الوازع ، ولا في العقل المدرك ، ولا في العقل الذي يناط به التأمل الصادق والحكم الصحيح . بل يعم الخطاب في الآيات القرآنية كل ما يتسع له الذهن الانساني من خاصة أو وظيفة . فالعقل في مدلول لفظه العام : ملكة يناط بها الوازع الأخلاقي، أو المنع من المحظور والمنكر .

ومن خصائص العقل :

• انه ملكة الادراك التي يناط بها الفهم والتصور ، وهي على كونها لازمة لادراك الوازع الاخلاقي وادراك أسبابه وعواقبه ، تستقل أحيانا لادراك الأمور فيما ليس له علاقة بالأوامر والنواهي .

• وانه يتأمل فيما يدركه ويقلبه على وجوهه ويستخرج منه بواطنه وأسراره ويبني عليها نتائجه وأحكامه .

وهذه الخصائص في جملتها تجمعها ملكة «الحكيم» وتتصل بها ملكة « الحكمة » ، وهي تتصل كذلك بالعقل الوازع اذا انتهت حكمة الحكيم به الى العلم بما يحسن وما يقبح ، وما ينبغي له أن يطلبه وما ينبغي له أن يأباه .

• ومن أعلى خصائص العقل الانساني « الرشد » وهو مقابل لتمام التكوين في العقل الرشيد . ووظيفة « الرشد » فوق وظيفة العقل الوازع والعقل المدرك والعقل الحكيم ، لأنها استيفاء لجميع هذه الوظائف وعليها مزيد من النضج والتمام والتميز بميزة الرشاد ، حيث لا نقص ولا اختلاف . وقد يؤتى الحكيم من نقص في الادراك ، وقد يؤتى العقل الوازع من نقص في الحكمة . ولكن العقل « الرشيد » ينجو به « الرشاد » من هذا وذاك .

وفريضة التفكير من القرآن الكريم تشمل العقل الانساني بكل ما احتواه من هذه الوظائف بجميع خصائصها ووظائفها ومدلولاتها ، فهو يخاطب العقل الوازع والعقل المدرك والعقل الحكيم والعقل الرشيد ، ولا يذكر العقل عرضا مقتضبا ، بل يذكره مقصودا مفصلا .

فمن خطابه الى العقل عامة ، ومنه ما ينطوي على العقل الوازع ، قوله تعالى في سورة البقرة « **ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخّر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون .** »

ومنه ما يخاطب العقل ، وينطوي على العقل الوازع ، كقوله تعالى في سورة الملك : « **وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير** » .

وهذا ما عدا الآيات التي تبتدىء بالزجر وتنتهي الى التذكير بالعقل ، لأنه خير مرجع للهداية في ضمير الانسان .

وهذا الخطاب المتكرر الى العقل الوازع يضارعه في القرآن خطاب متكرر مثله الى العقل المدرك ، أو العقل الذي يقوم به الفهم والوعي ، وهما أعم وأعمق من مجرد الادراك .

وكل خطاب الى ذوي الألباب في القرآن الكريم فهو خطاب الى لب هذا العقل المدرك الفاهم ، لأنه معدن الادراك والفهم في ذهن الانسان ، كما يدل عليه اسمه باللغة العربية مثل قوله تعالى : « **والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولوا الألباب** » . « **يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولوا الألباب** » . « **وتزودوا فان خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب** » .

ومن هذه الآيات نتبين ان اللب الذي يخاطبه القرآن ، وظيفته عقلية تحيط بالعقل الوازع والعقل المدرك والعقل الذي يتلقى الحكمة ويتعظ بالذكر .

وخطابه خطاب لاناس من العقلاء لهم نصيب من الفهم والوعي أوفر من نصيب العقل الذي يكف صاحبه عن السوء ولا يرتقي الى منزلة الرسوخ في العلم .

أما العقل الذي يفكر ويستخلص من تفكيره زبدة الرأي والروية فالقرآن الكريم يعبر عنه بكلمات متعددة تشترك في المعنى أحيانا ، وينفرد بعضها بمعناه على حسب السياق في أحيان أخرى . فهو الفكر ، والنظر ، والبصر ، والتدبر ، والاعتبار ، والذكر ، والعلم ، وسائر هذه الملكات الذهنية التي تتفق أحيانا في المدلول . ولكنها لا تستفاد من كلمة واحدة تغني عن سائر الكلمات .

قال الله تعالى : « **الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض** »

« **قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون** » .

« **قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون** »

« **فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون** » .

« **قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون** » .

بهذه الآيات وما جرى مجراها تقررت فريضة التفكير في الاسلام . وتبين منها ان العقل يخاطبه الاسلام هو العقل الذي يعصم الضمير ويدرك الحقائق ويميز بين الأمور ويوازن بين الاضداد ويتبصر ويتدبر .

ولما كان العقل في الاسلام له هذه العناية الفائقة من التقدير والسمو . أحيط بقواعد منهجية دقيقة تحفظ العقل من الزيغ وتجنبه الشطط والمروق وتتيح له النمو والتفتح والخلق والابداع . ومن أهم هذه القواعد :

التخصص قبل البحث

والتخصص الآن ، هو أحدث وسائل الدراسة الجامعية ، فان آية العقل الناضج أن يقف عند حدود ما يعلم ، فلا يصدر الأحكام الا في حدود اختصاصه ، ولا يقحم نفسه في اختصاص الآخرين ، فالطبيب لا يفتي في مسأله هندسية ، والكيميائي لا يفتي في مشكلة فلكية ، أما الذين يقحمون أنفسهم فيما يعلمون وفيما لا يعلمون معتمدين على جهارة الصوت وقوة الجدل وشهوة التغلب على الخصم دون النظر الى الحقيقة فهم بعيدون عن الصواب بقوله عز وجل في شأنهم : « **ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ، كتب عليه انه من تولاه فانه يضله ويهديه الى عذاب السعير** » .

ولقد وجهنا الله جل شأنه الوجهة الخلقية بالعقلاء وبالعلماء الباحثين في قوله تعالى « **فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون** » . « ولو ردوه الى الرسول والى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » ويخاطب الله عز وجل أولئك الذين يفتون بما لا يعلمون بقوله » « **ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا** » .

التقدير والتقرير

التثبت قبل الحكم والتدبر قبل العزم والتروي قبل الجزم ، بحيث لا يسبق اللسان الفكر ، ولا يطغي الظن على اليقين : أمر يفرضه القرآن على العقل لأن التعجل بالحصول على النتائج قبل استكمال البحث والموازنة والاستقراء كفيل بانحراف العقل وزيغه ، ولهذا عاب القرآن الكريم على الانسان أن ينساق مع العجلة ، وأن ينقاد لشهوة السبق ، مطالبا اياه بالتثبت والتبين ، قال تعالى : « **خلق الانسان من عجل** » . « **سأريكم آياتي فلا تستعجلون** » . « **ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة** » . « **يا أيها الذين آمنو ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين** » .

وقد أدب الله تعالى رسوله الكريم بهذا الأدب العظيم ، حيث يقول جل شأنه : « **لا تحرك به لسانك لتعجل به** » ، وحيث يقول « **ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى اليك وحيه وقل رب زدني علما** » .

المراجعة والمعاودة

ان العلماء المتثبتين هم الذين يراجعون أنفسهم المرة بعد المرة ، فلا يصدرون الأحكام الا بعد تمام الاستيفاء والاستيثاق ، فالأطباء مثلا يجرون التجارب على الأرانب والفيران ثم على القردة والخنازير ، وبعد أن يطمئنوا الى تجاربهم ونسبة النجاح فيها يطبقونها على الانسان ويترقبون النتائج ويسجلون الاحصاءات ، حتى اذا ما اطمأنوا الى نتائج أبحاثهم عرضوها في المؤتمرات الطبية ووضعوها تحت البحث والمناقشة . وأخيرا يصدرون أحكامهم في ثقة وعن يقين .

والعالم الذي يصون نفسه عن التبذل لا يصدر أحكامه على النتيجة الأولى ، ولا يبني مقاييسه على غلبة الظن أو على شهوة النجاح . وقد أخذنا القرآن الكريم بالا نبني أحكامنا على الظنون أو شهوة النجاح أو ثورة العواطف ، استجابة لأحقاد متوارثة أو نزوات عاطفية طارئة . يقول الله

عز وجل «**إن يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس**» . «**ولا يجر منكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى .**»

الاستمساك بالحق

اذا قام الدليل القاطع والحجة البالغة اتضحت الحقيقة . وينبغي اذن أن يؤمن الباحث بما اهتدى اليه ايمانا قاطعا لا يتردد فيه فلا يسلم نفسه للوسواس ، ولا ينقاد للهواجس ولا يستجيب للريب . يقول الله تعالى : «**انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا**» .

وقد ضرب الرسول صلوات الله عليه أروع الأمثال حينما تعرض للفتنة والمحنة والدسائس والمساومة ، فجهر بقوله : «**والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على ان اترك هذا الامر ما تركته حتى يظهره الله ، أو أهلك دونه**» .

وقد سار على نهجه صلى الله عليه وسلم من بعده في الاستمساك بالحق ، أبو بكر رضي الله عنه ، حينما ارتد بعض المسلمين ممتنعين عن اداء الزكاة ، فهب هبته وقال قولته وقطع على المعوقين والمترددين كل سبيل ، وهو يهتف بالمسلمين : « والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه » .

الدعوة إلى الحق

لا يكتفي القرآن بوجوب الجهر بالحق ، بل يوجب الدعوة اليه . يقول الله تعالى : «**ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون**» .

ويقول تعالى : «**فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون**». **وقد أوصى لقمان ابنه أكرم وصية حيث قال : «يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ان ذلك لمن عزم الأمور»** . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من رأى منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان » .

الدفاع عن الحق

ولا يكفي اثبات الحق والجهر به لأن قوى الشر متأهبة دائما للتحدي متحفزة للبغي مستعدة للعدوان . ولقد نبهنا الله تعالى ان الشيطان يتربص بنا الدوائر ويحاول أن يصدنا عن اليقين ، واننا اذا صمدنا في الدفاع عن الحق وبذلنا في الدفاع غاية الجهد ، عصمنا الله من سلطانه . وقال تعالى موجها خطاب التحدي للشيطان : «**واستفزز من استطعت منهم بصوتك واجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان الا غرورا ان عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا**».

ولقد حاول المشركون جاهدين أن يساوموا النبي صلوات الله عليه في ايمانه فقالوا : نعبد الهك يوما وتعبد آلهتنا يوما . فأنزل الله تعالى «**قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولي دين**» . وقال تعالى : «**والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة انا لا نضيع أجر المصلحين**» . وقد أمر الله تعالى رسوله العظيم بهذا الأدب الكريم فقال : «**فاستمسك بالذي أوحى اليك انك على صراط مستقيم**» .

الجهر بالحق

انها لمن أجل النعم وأعظمها هذه النعمة التي استحق بها الانسان التكريم والاستخلاف عن الله سبحانه وتعالى ، وما هذه النعمة الا العقل الذي يكتب في أبسط صورة التخليص الكامل للحقوق والواجبات . فاذا ما اطمأنت النفس الى أمر من الأمور ، هان هذا الأمر أو جل ، أصبح من الواجب المجاهرة به مهما كانت النتائج أو العواقب ، يقول الله عز وجل مخاطبا رسوله الكريم : «**فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين انا كفيناك المستهزئين**» . ويوجهه أكرم توجيه هاتفا به : «**يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس**» .

ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام « طوبى للسابقين الى ظل الله الذين اذا أعطوا الحق قبلوه . واذا سئلوه بذلوه . »

وبهذا قام الاسلام بثورة تحريرية كبرى أطلق بها العقول من أسارها ودفعها للتأمل في ملكوت السموات والأرض ، وليكون الايمان مبنيا على الفهم والاقتناع لا على المكابرة والارهاب . وقد اتخذ الاسلام في منهجه العقلي أربع خطوات متتالية :

أولا : محاربة الجمود والتقليد . لأن البناء على أساس عقلي متين يقتضي تنقية الرواسب والأكداس التي خلفتها القرون الماضية ، وأكسبتها طابع القداسة فهيمنت على العقول وحجبتها عن البحث والتأمل والتفكير ، وقد أنب القرآن المشركين على تمسكهم بآراء السابقين من الآباء والأجداد ولو كانو على ضلال مبين . قال تعالى : «**واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه أباءنا أو لو كان أباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع الادعاء ونداء ، صم بكم عمي فهم لا يعقلون .**»

ثانيا : مكافحة المكابرة والعناد . والمعاندون هم الذين يرون الحقائق ماثلة أمام أعينهم ، ولكنهم يكابرون ويجادلون ويختلقون الأكاذيب لطمس الحقائق وصرف العقول ، وهم الذين يقول الله تعالى فيهم : «**يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون**» .

واذا وضح الحق ماثلا أمامهم لا سبيل الى نكرانه كابروا «**وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب**» .

فاذا أحرجتهم الحقائق الملموسة تعنتوا في جدالهم وطالبوا بالمستحيلات «**وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا**» .

ثالثا : التأمل والاستنباط . بعد أن تتحرر العقول من أغلال التقاليد والمعتقدات الفاسدة وبعد أن تكشف أباطيل المكابرين المتعنتين ، تستطيع أن تنطلق حرة طليقة باحثة عن الحق متطلعة الى الهداية منقبة عن الصواب . وقد ناشدنا الاسلام أن نتأمل في ملكوت السموات والأرض وأن نتدبر ما أبدع الله من كائنات : «**ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب**» . «**أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت**»

ولا يكتفي الاسلام بهذا بل انه يحفزنا أيضا الى التأمل الذاتي في تكويننا الجسمي والعقلي : « **فلينظر الانسان مما خلق، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب** » وكلما لفت القرآن نظر المسلمين الى آية من آيات الله أهاب بالعقل أن يتدبرها : « **ان في ذلك لذكرى لأولي الألباب** » .

رابعا : النتائج العقلية مؤيدة بالبراهين . وبعد أن تنشط العقول من عقالها ، وتتدبر ملكوت السموات والأرض ، يعينها الاسلام على الوصول الى النتائج العلمية مؤيدة بالدليل المنطقي الملموس . « **لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا** » . « **ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله اذا لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض** » .

وهكذا نجد الحقيقة الكبرى مقررة مدعمة بالبرهان العقلي النافع الذي لا يعتريه شك أو ابهام ، ولا يكتفي القرآن في تقرير المبادىء العليا بدليل واحد أو برهان مفرد بل يسوق البرهان معززا بالبرهان حتى لا يدع للمكابرين حجة أو دليلا .

والوسائل التي اتخذها الاسلام لنشر العلم تعتمد على خطوات عديدة أهمها :

اولا : التأمل والدراسة والتدبر في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من كائنات .

ثانيا : البحث العلمي بالانتشار في أقطار الأرض لدراسة الجبال والأنهار والصحاري والبحار ومعرفة النبات والحيوان ووسائل الاستفادة من كل هذه الكائنات : « **الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه** » . « **هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون** » .

فالله سبحانه وتعالى لم يخلق هذه الكائنات عبثا وانما سخرها لنا لننتفع بها بعد دراسة أساليب هذا الانتفاع ، على أن تستخدم العقل والحواس معا في سبيل استنباط أيسر السبل وأسهل الوسائل لهذا الانتفاع وكثيرا ما يلفتنا الى أن وسيلة العلم وهي البحث والتفكير : « **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** » . وقد يغفل الناس عن أمر فيلفتهم اليه ليستغلوه : « **وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس** » .

ثالثا : الاستفادة مما تركه السابقون من معارف وعلوم وآثار ليمحصوها ، ثم يضيفوا اليها ما يهديهم اليه البحث من حقائق ونظريات : « **قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق** » . وللاتعاظ بما وقع فيه السابقون من أخطاء : « **أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة** » .

« **أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها** » . وكثيرا ما يضرب الأمثلة بالأمم السابقة : « **ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذي الأوتاد الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب ان ربك لبالمرصاد** » .

وكثيرا ما يلفت النظر الى أن الحكمة ضالة المؤمن يلتمسها انى وجدها : « **وفي الأرض آيات للموقنين** » . ثم يقرع الغافلين عن البحث والدرس والملاحظة التجريبية : « **وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون** »، ثم يدعو الى سؤال علماء الأمم السابقة ، أو من ورثوا عنها هذه العلوم للمعرفة والتثبيت : « **فان كنت في شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك** » .

رابعا : الرحلة في طلب العلم . فقد ذكر الله عز وجل في القرآن الكريم عن رحلة نبيه موسى عليه السلام في طلب العلم الى الخضر وانتقاله معه دارسا متعلما . ويقول الرسول الكريم صلوات الله عليه « من سلك طريقا يطلب فيها علما سلك الله به طريقا من طرق الجنة » . وتلبية لهذا الأمر شد المسلمون الاولون الرحال ، وقطعوا الفيافي وجابوا البحار في طلب الحديث والفقه وعلوم الدين والدنيا . فنشروا العلم في أنحاء الأرض ونهضوا بالثقافة الانسانية الى أعلى المستويات وأسسوا حضارة علمية سيطرت على العالم كله مئات السنين . وقد أقام الاسلام منهجا في تحرير العقل والفكر يعتمد على ثلاث دعائم هامة :

الدعامة الأولى : تحرير الانسان من أغلال الحجر العقلي وسيطرة التبعية العمياء ، وتربيته على حرية الفكر واستقلال الارادة ليكمل بذلك عقله ويستقيم تفكيره وتكتمل له شخصيته وانسانيته ، فان كمال العقل واستقامة التفكير واستقلال الارادة هي أساس صحة العقائد ومعرفة الحق الذي يجب أن يتبع ، وقد عني الاسلام ببناء هذه الدعامة عناية كبرى ، فجعل البرهان أساس الايمان الصادق والعقيدة الصحيحة ، وبين أن كل اعتقاد أو عمل لا يقوم على دلائل الحق فهو مردود على صاحبه وأنذر الذين يجادلون في الله وآياته بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، كما يقول تعالى : « **ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير** » وطالب كل ذي عقل بالنظر في عوالم السموات والأرض وما فيهما من الدلائل الواضحة على وحدانية الله تعالى في ألوهيته وربوبيته كما في قوله تعالى : « **أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء** » . « **قل انظروا ماذا في السموات والأرض** » . « **أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب** » .

واستنهض العقول ووجه الأفهام وأيقظ الحواس ونبه المشاعر بالتعقيب على بيان الأيات الكونية والتشريعية بمثل قوله تعالى : « **ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون** » . « **ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون** » .

وذم الغافلين ونعى عليهم غفلتهم واعراضهم عن دلائل الأيات الكونية التي يشاهدونها في كل لحظة وهم عنها غافلون وتطالعهم بدلائلها في كل آونة وهم عنها معرضون كما في قوله تعالى: « **أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور** » وعاب على أسرى التقليد اعراضهم عن الحق الذي جاءت به أنبياء الله ورسله ، وجمودهم على اتباع ما وجدوا عليه آباءهم وارتكابهم الفواحش باسم الدين تعصبا للجمود والتبعية العمياء ، كما قال عز وجل : « **واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون** » .

فالتقليد الأعمى من شر ما تبتلى به الأفراد والجماعات لأنه يميت مواهب الفكر والنظر ويوجب جمودها وركودها ولا يميز بين الحق والباطل ولا بين الصواب والخطأ .

ولهذا قرر الاسلام حق الانسان في حرية الفكر واستقلال الارادة ، وفتح له طريق التحرر الفكري والاستقلال الارادي . وبوأه المنزلة اللائقة بانسانيته وكرامته ، وعرفه ان الله تعالى لم يخلقه عبدا يقاد كما تقاد الأنعام ، ولا جعل لمخلوق حق السيطرة على عقله وفكره وانما خلقه حرا مالكا لقيادة نفسه ، يفكر بعقله ويسترشد بمواهبه ويعمل باختياره وارادته ويهتدي بنور العلم في اختياره وعمله ، ولا يظهر بمظهر العبودية الا لخالقه ولا يدين في عقائده وسلوكه الا بدين الحجة والبرهان .

وهناك حقيقتان قد يقع الخلط في فهمهما :

الاولى : أن التقليد الذي ذمه الاسلام وشدد النكير على أهله انما هو التقليد الذي يقوم على التبعية العمياء والجمود على القديم الموروث ومحاربة كل جديد يخالفه ، ولو كان ذلك الجديد أقوم طريقة وأهدى سبيلا .

الثانية : ان حرية الفكر التي جعلها الاسلام رائدا للتفكير الديني ونبراساً للعقول والافهام في الاهتداء الى معالم الحق ، هي الحرية التي تطلق العقول والافهام من أغلال الحجر العقلي والكبت الفكري ، وتحررها من سيطرة التقليد والتبعية العمياء ، وتجلي لها معالم الحقائق التي كانت محجوبة عنها ، وتجعل قيادة التوجيه قيادة بناء واصلاح .

الدعامة الثانية : تحرير الانسان من أصفاد الجهل وظلمته ، فان الجهل يقتل مواهب الفكر والنظر ، ويطفىء نور القلوب ، ويعمي البصائر ، ويميت عناصر الحياة والقوة في الأمم ، ويفسد على جماهير الناس مناهج الدين والتدين ، لأن أهل الأهواء والبدع يجدون في الجهل بتعاليم الدين مجالا واسعا لنشر ما يستحدثونه من خرافات ، ويسارع بعض الناس بدافع الجهل والثقة العمياء الى اعتناقها والعمل بها على انها من الدين ، وهم لا يعلمون ان الدين منها براء .

ولقد عني الاسلام ببناء هذه الدعامة عناية كبرى . فذم الجهل والجاهلين في مواطن كثيرة كما في قوله تعالى : « **يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية** » ، «**أفحكم الجاهلية يبغون**» . «**ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون** » .

وأنحى باللائمة على الذين يتبعون الظنون والأوهام في عقائدهم وتدينهم ، كما في قوله تعالى : « **ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون** » . « **وما يتبع أكثرهم الا ظنا ان الظن لا يغني من الحق شيئا** » .

وعظم شأن العلم وحث على طلبه ، كما في قوله تعالى : « **بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم** ، » ونوه بفضل الحكمة وما فيها من الخير الكثير ، كما في قوله تعالى : « **يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا** » وقوله صلى الله عليه وآله وسلم « لا أحسد الا في اثنين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس » ، ورفع منزلة العلماء وجعلهم أهل خشيته ، وقرن شهادتهم بشهادته تعالى وشهادة ملائكته : « **انما يخشى الله من عباده العلماء** » ، « **شهد الله انه لا آله الا هو والملائكة وأولوا العلم** » .

وجعلهم ينابيع العلم وموارد العرفان ، ورواد الحق ودلائل الهدى ، كما في قوله تعالى: « **فأسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون** » ، وخصهم بالتعقل والفهم في مقام ضرب الأمثال وبيان آيات الله الكونية ، كما في قوله تعالى : « **وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون** » . « **ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف السنتكم وألوانكم ان في ذلك لآيات للعالمين** » .

وهكذا عرف المسلمون الأولون منزلة العلم وفضله وأدركوا مبلغ الحاجة اليه في دنياهم وبناء مجتمعاتهم ودعم سلطانهم . وانه هو الذي يوضح لهم معالم السير على النهج القويم . ويفتح لهم آفاق الحياة العزيزة الكريمة ، ويكشف لهم عن أسرار العوالم الكونية ونواميسها ، ويقيم لهم وسائل الحياة والقوة ويبني لهم قواعد السيادة والمجد .

وعرفوا كل هذا فوجهوا عزائمهم الى طلب العلوم على اختلاف أنواعها ، ولم يشغلهم عن طلبها ترف الحضارة ونعماؤها ، ولا ثنت عزائمهم عنها بأساء الحياة وضراؤها ، وبحثوا عنها في آيات الله التشريعية وآياته الكونية ، وأقاموا في كل قطر اسلامي منارا عاليا ، وحملوا مشاعلها الى مشارق الأرض ومغاربها . ولم يقفوا بجهودهم عند نتاج عقولهم وافهامهم بل اتجهوا بها أيضا الى علوم السابقين يدرسونها ويمحصونها ويأخذون عنها ويزيدون عليها ، ما أهداهم اليه البحث والنظر والاستدلال فاستخرجوها من زوايا الاهمال والنسيان ، وأخذوا ابريزها بعد أن زادوه نقاء وصفاء ، وردوا زائفها بعد أن بينوا زيفه وفساده لأنهم كانوا يطلبون هذه العلوم طلب الناقد البصير ، لا طلب التابع المقلد ، واكتمل لهم من ملكات العلوم والفنون في جيل واحد ما لم يكتمل لأمة من الأمم الناهضة في عدة أجيال ، وفي ذلك يقول بعض المؤرخين الاجتماعيين من علماء الغرب : ان ملكة الفنون لم يتم تكوينها في أمة من الأمم الناهضة الا في ثلاثة أجيال : جيل التقليد ، وجيل الخضرمة ، وجيل الاستقلال والاجتهاد ، الا العرب وحدهم فقد تمت لهم ملكة الفنون في الجيل الأول الذي بدأوا فيه بمزاولتها » .

وان تعجب لهذه النهضة العلمية التي تخطت مراحل النهوض في الأمم فعجب انهم قاموا بها على رغم الأحداث العاتية التي حملوا أعبائها والحروب الطاحنة التي خاضوا غمارها ، لأن الأحداث والخطوب وان بلغت من العنف ما بلغت ، لا تستطيع أن تقف في طريق العقائد التي انطوت عليها القلوب وانفعلت بها النفوس ولا أن تمنع العزائم القوية من الوصول الى أغراضها وأهدافها .

وبهذه النهضة العلمية استطاعوا أن يعملوا عمل الأقوياء لأن العمل لبناء المجتمعات لا يصدر الا عن ارادة قوية دافعة ، والارادة القوية الدافعة لا تنبثق الا من العلم ، فالأمة التي أفقدها الجهل قوة الارادة وصدق العزيمة لا يمكن أن تعمل شيئا .

الدعامة الثالثة : تحرير الانسان من طاعة الأهواء والانقياد الأعمى لوحيها لأن طاعة الاهواء من أقوى عوامل انحراف الانسان في سلوكه والتوائه في نظره وتفكيره .

ولهذا عني الاسلام بالتحذير البالغ من اتباع الهوى والانقياد الأعمى للأشياء ، فذم العاكفين على عبادة الأهواء والأغراض ونعى عليهم ضلالهم وانحرافهم عن الحق ارضاء لأهوائهم ، كما في قوله تعالى : « **ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس** » . « **أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون** » . « **فان لم يستجيبوا لك فاعلم انما يتبعون أهواءهم** » . « **ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ان الله لا يهدي القوم الظالمين** » وقوله صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن احدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » ، « ثلاث مهلكات : شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه » .

وهكذا طالبنا الاسلام بأن نظهر نفوسنا وسلوكنا من الأغراض الخفية والأهواء الدفينة ونحرر عقولنا وافهامنا من الخضوع للجهل والانقياد الأعمى.

وبهذا يسمو المجتمع ويصل الى ما قدر له من خير ومعرفة ■

الاحصاء في الاسلام

بقلم الدكتور احمد الشرباصي

نقول اللغة : أحصى فلان الشيء ، اذا عدّه ، أو حفظه ، أو عقله . والاحصاء هو التحصيل بالعدد ، والمادة مأخوذة من كلمة « الحصى » لأنهم كانوا يعتمدون على الحصى في العدد ، كما يعتمد غيرهم على الأصابع . وقد ذكر ابن الأثير في « النهاية » أن الاحصاء هو العدّ والحفظ ، وان « المحصي » من أسماء الله تعالى ، ومعناه الذي أحصى كل شيء بعلمه وأحاط به ، فلا يفوته دقيق منها ولا جليل . وفي الاحصاء معنى التقدير ، كما يذكر الأصفهاني ، معناه « تبيّن كمية الشيء » .

والاحصاء اليوم علم له أصوله وقواعده ، ويقصد منه جمع البيانات الاحصائية وتبويبها وتحليلها واستخراج النتائج المختلفة منها ، وقد صار للاحصاء قيمة كبيرة جدا في التجارة والصناعة والزراعة وغيرها ، ويمكن الانتفاع به في كل مجال من مجالات الحياة .

والاحصاء بمعنى الحصر والعد فكرة قديمة ، ترجع الى عهد بعيد في تاريخ الانسانية ، ويبدو أن قدماء المصريين كانوا أول من قاموا بالاحصاء ، ففي عهد بناء الأهرام تم تعداد لسكان مصر وثروتها ، وانتفعوا بذلك في تنظيم مشروع البناء ، وفي عهد رمسيس الثاني تم تعداد للسكان للانتفاع به في عملية توزيع الأراضي .

وقد كان الاحصاء في الأصل — كما يقول الباحثون — مقصورا على الأعمال الخاصة بشؤون الدولة ، واستدلوا على ذلك بالأصل اللغوي الانجليزي لاسم التعداد — والتعداد هو الاحصاء — فاسمه في اللغة الانجليزية « Statistics » وهذه الكلمة مشتقة من كلمة « State » وهي بمعنى « الدولة » ، وعلى هذا جعلوا معنى الاحصاء هو « مجموعة الحقائق الخاصة بشؤون الدولة » ، ولكن نطاق الاحصاء اتسع حتى صار يتخذ وسيلة للاهتداء الى حقائق الأمور واتجاهات الظواهر الاقتصادية والاجتماعية والعلمية ، وصار ذا أثر عميق في تصريف شؤون المجتمع وتدبير سياسته ، كما يفيد في شؤون الأفراد والهيئات .

وصار الاحصاء علما عرّفه بعضهم بقوله : الاحصاء علم يبحث في طريقة جمع الحقائق الخاصة بالظواهر العلمية والاجتماعية ، وكيفية تسجيلها في صورة قياسية رقيمة . وعرّفه بعض آخر بقوله : الاحصاء هو العلم الذي يدرس الظواهر التي تلوح عرضية لا ضابط لها في مشاهداتها بغرض الوصول الى القوانين التي تحكم هذه الظواهر .

وكان الاحصاء في أول أمره عملا ساذجا يعتمد على احصاء المنازل ، أو المكلفين بالخراج أو العشور أو الجزية أو الخدمة العسكرية ، أو المواليد أو الوفيات ، أو الذكور أو الاناث ، ولكنه أخذ يتطور فأصبح له أسس وطرق وقواعد ونظريات ، وصار له متخصصون مشهورون ، مثل فردريك جاوس الألماني ، ولابلاس الفرنسي ، وكيتليه البلجيكي ، وجولتون الانجليزي ، وأنكرسون الدانمركي ، وارفنج فيشر الأمريكي ، وغيرهم ممن تفرغوا لدراسة علم الاحصاء ، واستنباط نظرياته ، وكشف غوامضه ، والانتفاع به في مختلف المجالات .

ولعل أول علاقة نشأت بين الدين والاحصاء هي ان رجال الدين في العصور القديمة هم الذين كانوا يقومون بعملية الاحصاء . وليس من الميسور لنا أن نتابع تطور هذه العلاقة بين الدين والاحصاء في مختلف العصور والبيئات ، فحسبنا في مجال بحثنا ان نتعرف الى علاقة الاسلام بالاحصاء .

إن اول ما يخطر ببالنا في هذا المجال هو أن نرجع الى القرآن الكريم لنجده يشير في مواطن منه الى مادة الاحصاء وما فيه من معنى العدّ والتقدير ومعرفة كمية الشيء ، فالقرآن يذكر مادة « أحصى » في مواطن كثيرة ، منها قوله في سورة الكهف : **« ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا »** ، وقوله في سورتي ابراهيم والنحل : **« وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها »** ، وفي سورة المزمل : **« علم أن لن**

تحصوه » ، وفي سورة الجن : **« وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا »** وفي سورة مريم : **« لقد أحصاهم وعدهم عدا »** ، وقوله في سورة الطلاق : **« وأحصوا العدّة »** .. الخ .

وذكر القرآن الكريم مادة « العدد » في مواطن ، منها قوله في سورة مريم : **« فلا تعجل عليهم انما نعد لهم عدّا »** ، وفي سورة الهمزة : **« الذي جمع مالا وعدّده »** ، وفي سورة« المؤمنون»: **« قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين »** ، وفي سورة البقرة : **« ولتكملوا العدة »** الخ .

وتحدثنا السيرة العطرة بأن أول تعداد حدث في الاسلام كان على عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، فقد روى الامام البخاري في صحيحه ان حذيفة رضي الله عنه قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : « احصوا لي كم يلفظ الاسلام » . أي كم شخص دخل في الاسلام ونطق بشهادته ويتكلم بدعوته . فقلنا : يا رسول الله ، أتخاف علينا ونحن ما بين الستمائة الى السبعمائة ؟ . قال : « انكم لا تدرون ، لعلكم ان تبتلوا » .

قال : فابتلينا حتى جعل الرجل منا لا يصلي الا سرّا . (وهذا في أول الأمر قبل انتشار الاسلام وكثرة أهله) .

وكذلك روى الامام البخاري رواية أخرى ان حذيفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اكتبوا لي من تلفظ بالاسلام من الناس » . فكتبنا له ألفا وخمسمائة رجل ، فقلنا : نخاف ونحن ألف وخمسمائة ؟ فلقد رأيتنا ابتلينا حتى ان الرجل ليصلي وحده وهو خائف .

ولقد قال الدماميني ان هذا كان عام الحديبية .

ولعل السبب في تعدد الروايات هنا هو ان طلب الاحصاء تكرر من الرسول عليه الصلاة والسلام أكثر من مرة ، وقد فهمنا مما سبق ان المسلمين كانوا عند الطلب الأول ما بين الستمائة والسبعمائة ، وكانوا عند الطلب الآخر ألفا وخمسمائة رجل ، وقد عقد الامام البخاري بابا جعل عنوانه : « كتابة الامام الناس » وذكر ما سبق من الحديث . والظاهر ان هذا الطلب كان باكورة ظهور الاحصاء في مجتمع الاسلام .

ولقد كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يقسم ما يأتيه من خير على مستحقيه ليومه ، ولذلك لم يكن هناك مال يدخر غالبا ، ولم يكن هناك سجل يجمع أسماء المسلمين ، ولكن السيرة تحدثنا بأن معيقب بن أبي فاطمة الدوسي كان يكتب مغانم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان عبد الله بن الأرقم يكتب بين القوم في مياههم وقبائلهم ، وكان الزبير بن العوام وجهم بن الصلت يكتبان للنبي أموال الصدقات ، وكان حذيفة يكتب ثمار النخيل ، ويمكن أن نعد هؤلاء الصحابة طلائع الذين قاموا بالاحصاء في المجتمع الاسلامي على عهد الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

ولما كان الاحصاء يتضمن العدد والتقدير ، وهما يمهدان للرعاية والضبط وحسن التصرف فاننا نستطيع أن نلمح اشارة نبوية الى أهمية الاحصاء من قول رسول الله عليه الصلاة والسلام : « نفس تنجيها خير لك من أمارة لا تحصيها » ، واذا كان في هذا الحديث الشريف حث على صيانة النفس من أسباب الهلاك ، فانه يتضمن أيضا التوجيه الى صيانة الأشياء والأمور التي يوكل الى الانسان رعايتها والاشراف عليها ، ومما يعاون على ذلك معرفة أبعاضها وأجزائها .

• • •

وجاء عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وفيه اتسعت الدولة وكثر المسلمون ، فشرع عمر في انشاء « الديوان » وهو السجل الذي يحصي الناس ويبين حقوقهم ، وكان ذلك في السنة الخامسة عشرة — وقيل في السنة العشرين — ويروى ان السبب المباشر في وضع الديوان هو ان أبا هريرة جاء من « البحرين » بمال كثير للمسلمين ، فقال له أمير المؤمنين عمر : بم جئت ؟ . فأجابه أبو هريرة قائلا : جئت بخمسمائة ألف .

فاستكثر عمر العدد فقال له : أتدري ما تقول ؟ أنت ناعس ، اذهب فبت حتى تصبح .

وفي اليوم التالي سأله عمر : كم هو ؟ فأجاب بقوله : خمسمائة ألف درهم . فقال عمر : أمن طيب هو ؟ . فأجاب : لا أعلم الا ذاك .

فتحدث عمر الى الناس فقال : أيها الناس ، انه قد جاءنا مال كثير ، فان شئتم كلنا لكم كيلا ، وان شئتم عددنا لكم عداً . ثم استشار عمر الناس في الأمر ، فقال له رجل — قيل انه الهرمزان أو المرزبان — : يا أمير المؤمنين ، دون للناس دواوين يعطون عليها . وروي ان علي بن أبي طالب قال له : تقسم كل سنة ما اجتمع اليك من مال ، ولا تمسك منه شيئا . وقال عثمان : أرى مالا كثيرا يسع الناس ، وان لم يحصوا حتى يعرف من أخذ ممن لم يأخذ ، خشيت أن ينتشر الأمر (أي يتسع ولا يسهل ضبطه) .

وهنا قال الوليد بن هشام بن المغيرة : قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديوانا ، وجندوا جندا ، فدون ديوانا ، وجند جندا .

واقتنع الفاروق بالرأي فكلف جماعة فيهم عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم أن يقوموا باحصاء الناس قائلا لهم : اكتبوا الناس على منازلهم . وأمرهم بأن يذكروا أولا آل الرسول صلى الله عليه وسلم ، الأقرب منهم فالأقرب ، ثم قبائل قريش ، ثم الأنصار ، وأمر عمر بأن يكتبوا بعد ذلك كل مولود يولد في الاسلام . وقرر اعطاء مائة درهم لكل واحد من هؤلاء عقب ولادته .

وبهذا اتسع نطاق الاحصاء في مجتمع الاسلام ، فصار هناك تعداد للمجاهدين وغيرهم ، واستتبع ذلك أن يكون هناك تعداد لما يرد من أموال أو أشياء أخرى ، ومما يدل على ذلك أن الأرض المفتوحة في عهد عمر في الشام والعراق وغيرهما قد الحقها ببيت مال المسلمين ، واستثمرها باشرافه ، ويروي المؤرخون ان الغلة التي تجمعت من هذه الأرض بلغت بضعة ملايين ، فمنهم من قدرها بما قيمته أربعة ملايين درهم ، ومنهم من قدرها بسبعة ، ومنهم من قدرها بتسعة ، ولعل اختلاف الأرقام يرجع الى ان الغلة كانت تزيد مع الأعوام المتوالية . ولقد تحدث القلقشندي

في الجزء الثالث عشر من كتاب « صبح الأعشى » عن هذا الموضوع بتوسع .

كذلك يروي التاريخ ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعث عثمان بن حنيف وحديفة بن اليمان الى أرض السواد بالعراق ، وهي التي سميت سوادا لسوادها بالزرع والأشجار ، لأن الخضرة ترى من البعد سوداء — وكلفهما أن يحصيا مساحتها ، وأن يقدرا مقادير الخراج على كل قطعة منها بالعدل وبما تحتمله الأرض ، فاستجابا لذلك ، وبلغت المساحة حسب تقديرهما ستة وثلاثين ألف ألف جريب ، والجريب — كما يذكر الماوردي — هو عشر قصبات في عشر قصبات ، والقصبة ستة أذرع .

وأرض السواد طولها — كما ذكر في كتاب الأموال — من لدن تخوم الموصل ، ممتدا مع الماء الى ساحل البحر ببلاد عبّادان من شرقي دجلة ، وعرضها من منقطع الجبل من أرض حلوان ، الى منتهى طرف القادسية المتصل بالعذيب من أرض العرب .

وكذلك قام عمر رضي الله عنه باحصاء من تجب عليهم الجزية في جميع أنحاء السواد ، فكانوا خمسمائة ألف وخمسين ألفا على اختلاف الطبقات .

وهكذا نجد ان الاحصاء في عهد عمر بن الخطاب قد تنوع وتعدد فكان هناك احصاء للمجاهدين ، واحصاء لأهل السبق في الاسلام ، واحصاء للمواليد ، واحصاء لمن يلزمهم الخراج ، واحصاء للأرض التي تتبع بيت مال المسلمين .

* * *

وننتقل الى الاحصاء في مصر الاسلامية :

حينما فتح المسلمون مصر سنة عشرين — على القول الراجح أحصى واليها عمرو بن العاص من فيها من الرجال البالغين الأقباط ، وقدر على كل واحد منهم جزية قدرها ديناران كل عام ، وأعفى من هذه الجزية النساء والشيوخ والصبيان ، وجمعت الجزية من هؤلاء الرجال القادرين وأحصيت ، فكان مجموعها اثني عشر ألف ألف دينار ، وقد أقر الخليفة عمر هذا الاجراء ، وكانت الجزية مقام الحماية وضمان الأمن والدفاع . وقد تحدث المقريزي عن هذا في رسالته عن النقود الاسلامية .

كما قام عمرو باحصاء لجميع السكان عند الفتح فبلغ مجموعهم خمسة ملايين من الأشخاص .

وقد ذكر المقريزي في خططه أن معاوية جعل على كل قبيلة من قبائل العرب في مصر رجلا يصبح كل يوم ، فيدور على المجالس ، فيقول : هل ولد الليلة فيكم مولود ؟ وهل نزل بكم نازل ؟ . فيقال : ولد لفلان غلام ، ولفلان جارية (أي بنت) فيكتب أسماءهم ، ويقال : نزل بهم رجل من أهل كذا بعياله ، فيسميه وعياله ، فاذا فرغ من القبيلة اتى الى الديوان — الذي يشبه مصلحة الاحصاء الآن — فيثبت ذلك .

وهكذا نجد ان المسلمين عرفوا منذ وقت مبكر « المتابعة الفورية » في الاحصاء ، مع اتباع الطريق المباشر في هذا الاحصاء ، وعرفوا كذلك احصاء الوافدين على القبيلة من القبائل ، وكانوا يفعلون ذلك يوميا ويبدو ان معاوية كان يدقق في العمليات الاحصائية المتصلة بالمال ، ولذلك روى التاريخ ان زيادا قدم سنة اثنتين وأربعين للهجرة من فارس على معاوية ، وكان زياد واليا عليها من قبل الامام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وحينما سأله معاوية عن أموال فارس قدم اليه بيانا احصائيا مفصلا عنها ، فبين له فيه ما حمله من الأموال الى علي ، وما بقي عنده كوديعة للمسلمين ، فصدقه معاوية ، وتسلم منه ما بقي لديه ، وقال له : قد كنت أمين خلفائنا .

وفي السنة التسعين نجد قرة بن شريك العبسي واليا على مصر ، وأراد أن يضبط النفقات ، فأجرى احصاء جديدا لأصحاب العطاء ، وكانت هذه هي المرة الثالثة التي يتم فيها مثل هذا الاحصاء في مصر الاسلامية ، وقد كانت المرة الأولى في عهد عمرو بن العاص ، والثانية في عهد عبد العزيز بن مروان . وهكذا نفهم ان المسلمين كانوا يدركون الحاجة الى تكرار الاحصاء في كل مرحلة زمنية ، ليتبينوا ما يطرأ على الأحياء والأشياء من تغيير أو تبديل .

وفي العام السابع بعد المائة ، وفي عهد هشام بن عبد الملك ، قام عبيد الله بن الحبحاب بتقدير لأرض مصر ، وجعل للعامر من الأرض احصاء ، وللغامر منها احصاء ، وهذا يدل على عرفانهم « نوعية الاحصاء » .

* * *

وحينما تولى الخلافة عبد الملك بن مروان عمل احصاء جديدا بوساطة الضحاك بن عبد الرحمن الأشعري ، وأدقّ ما في هذا الاحصاء انه أراد أن يحدد بالضبط ما ينبغي أن يدفعه الفرد القادر من الجزية ، فعد الناس كلهم عمالا بأيديهم ، وأحصى مقدار ما يكسبه الفرد خلال السنة كلها ، ثم حسب ما ينفقه في السنة ، ولم يعد في الحساب أيام الأعياد اذ لا عمل فيها ولا كسب ، فوجد ان المستحق بعد هذ كله هو أربعة دنانير على الفرد في العام .

وبعث عبد الملك بالسكة — وهي حديدة منقوشة تضرب عليها الدراهم — الى الحجاج فسيرها الى الآفاق ، لتضرب الدراهم بها ، وتقدم الى الامصار كلها أن يكتب اليه كل منها في كل شهر بما يجتمع لديهم من المال ، كي يحصيه ، وأن تضرب الدراهم في الآفاق على السكة الاسلامية ، وأن يحمل اليه بيانها أولا بأول .

* * *

وفي الدولة العباسية ظهر جهاز جديد له علاقة بالاحصاء ، وهذا الجهاز كان يسمى « ديوان زمام الأزمة » . وكانت مهمة هذا الجهاز أن يشرف على الدواوين القائمة في مختلف البلدان ، ليراقبها ويحاسبها ويضبط عملها ، وقد أنشىء هذا الجهاز سنة اثنتين وستين ومائة .

وهكذا نجد أن المجتمع الاسلامي قد عرف الطريق الى الاحصاء منذ شروق الاسلام ، وأن هذا المجتمع أخذت عنايته بالاحصاء تتسع على مر العصور والأجيال ، فكانت هذه العناية أحد العوامل التي ساعدت على توطيد دعائم الحضارة الاسلامية وتثبيت أسس المجتمع الاسلامي ■

المكتبات... مراكز الاشعاع الثقافي

كانت المكتبات، ولا تزال، تشكل لبنات أساسية في صروح العلم والمعرفة، فهي منارة للاشعاع الثقافي، ومرتع معطاء يأوي اليه الدارسون والباحثون ليجنوا من غراسه الثرة ثمار الدرس والتحصيل يقضون بها أوطار بحثهم فتيسر لهم مبتغاهم وتحقق لهم ضالتهم ...



تعتبر مكتبة جامعة الرياض المركزية في مصاف المكتبات البارزة في المملكة . اذ تحوي بين جنباتها ما يربو على ٦٠ ألف كتاب ومؤلف ، بالاضافة الى عدد من الأفلام المصغرة « Micro-film » .

المكتبات في التاريخ الاسلامي

أدرك العرب منذ القدم أهمية المكتبات وعظم أثرها وسمو رسالتها في نشر الوعي الثقافي والفكري . فأقاموا دور الكتب في حواضر العالم الاسلامي . ولعل العصور العباسية تعتبر العصر الذهبي لانتشار المكتبات ، اذ اتسعت رقعة الدولة الاسلامية فبلغت ذروة قوتها ، وازدهرت علومها وصناعتها وتجارتها حتى أصبحت « بغداد » مركزا للاشعاع الثقافي ومناراً للعلم والمعرفة يؤمه الطلاب من كل صوب وحدب . وقد ازدهرت العلوم والآداب في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد لحبه للعلم من جهة ، ولتقدم صناعة الورق الذي ساعد على انتشار الكتب من جهة أخرى . فشيد الرشيد « بيت الحكمة » في بغداد حيث تخرج منه كبار العلماء والفلاسفة . وكان هذا البيت على غرار جامعات العصر الحاضر تقريبا . وقد لمع نجم الخليفة « المأمون » في سماء النهضة العلمية حتى لقب « بأغسطس العرب » ، وعد عصره العصر الذهبي العلمي آنذاك . وقد كان هو نفسه عالما فيلسوفا ، فعمل جاهدا على تشجيع العلم والعلماء والمترجمين وأغدق عليهم الأموال وعقد لهم المناظرات العلمية التي كان يشترك فيها بنفسه . وكان أشهر المترجمين في عهده « حنين بن اسحاق » الذي كان يعطيه مقابل كل كتاب يترجمه ما يوازي وزنه ذهبا . ولم يكتف المأمون ببيت الحكمة الذي أنشأه والده ، بل وسعه وزاد فيه حتى أصبح مكتبة وجامعة كبرى يؤمها الطلاب والعلماء من جميع أرجاء الدولة الاسلامية المترامية الأطراف . وبلغ من اهتمام المأمون بالعلوم انه اشترط على ملك الروم أن يدفع له في الجزية كتبا علمية . فظهر في عصره الفيلسوف العربي يعقوب الكندي ، ومحمد الخوارزمي العالم الرياضي المشهور ، ومن علماء الفقه الامامان الشافعي ، وأحمد بن حنبل ، والجاحظ مؤدب المأمون ومؤلف كتاب « البيان والتبيين » وغيره من الكتب .

وقد درج الخلفاء العباسيون على ارسال البعثات الى القسطنطينية وغيرها لشراء الكتب اليونانية بأثمان باهظة لترجمتها واستخلاص محتوياتها ، وخاصة كتب الطب والرياضيات والفلك .

وعلى مر العصور الاسلامية ازدهرت العلوم ازدهارا ملحوظا واتسعت فروعها وامتدت جذورها عميقا وصار الأمراء والحكام يولونها فائق عنايتهم وكبير اهتمامهم .. ففي العصر البويهي مثلا ، كان الأمراء يتنافسون على تشجيع العلماء والأدباء فأخذوا يدفعون لهم الرواتب الضخمة ويقدمون لهم الهدايا النفيسة ، فانتشرت المكتبات العامة والخاصة في المدن ، وتباهى الأمراء باقتناء الكتب النادرة والمخطوطات القيمة لا سيما في الأندلس حتى عد عصر ملوك الطوائف أزهى عصور الأندلس العلمية . وقد بلغ « بالحكم » ، صاحب الأندلس ، الشغف باقتناء الكتب حدا كبيرا ، فعندما سمع أن أبا الفرج الأصفهاني كاد أن ينتهي من تأليف كتابه « الأغاني » بعث اليه بألف دينار ذهبا ليرسل اليه نسخة منه قبل أن يخرجه في بغداد .

وعمل الخلفاء الفاطميون أيضا على تشجيع العلم والعلماء اقتداء بالأمويين في الأندلس وأمراء المشرق ، فأنشأ « المعز لدين الله » مكتبة فخمة أباح استعمالها لجميع السكان ، ثم أغدق الأموال على العلماء والأدباء ، وصار كالمأمون يعقد لهم المجالس العلمية ويشترك فيها بنفسه . فاحتشدوا في بلاطه بأعداد كبيرة من بينهم الشاعر ابن هاني الأندلسي الملقب « بمتنبي الغرب » . ولما آلت الخلافة للعزيز أنشأ أكاديمية لنشر العلوم ومكتبة ضمت بين جنباتها ٢٠٠ ألف كتاب . وفي عام ١٠٠٥م أسس الحاكم بأمر الله مكتبة « دار الحكمة » على غرار « بيت الحكمة » التي أنشأها الرشيد في بغداد ، وخصص لها أوقافا تكفيها . ولم يمض طويل وقت حتى انتشرت المكتبات انتشارا واسعا ، وبلغت من الكثرة حدا لا يمكن تصوره . وحين دخل التتر بغداد عام ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) دمروا — فيما دمروا — المكتبات وأتوا على الكتب ، وبذلك خسر العالم كنوز قرون خمسة كانت المعين الذي لا ينضب ، من الثقافة والمعرفة .

وكان من نتيجة ذلك أن أخذ شأن المكتبات في العالم العربي والاسلامي يتضاءل فخمدت جذوة العلم وأهملت المعاهد والمكتبات . ولم ينشط الاهتمام بالمكتبات الا في مطلع القرن العشرين عندما عمت النهضة أرجاء الأقطار العربية ، فأخذت بأسباب الحضارة والرقي ، وشق التعليم العصري المنظم طريقه اليها ، وتأسست المدارس والجامعات ، وانتشرت المطابع ، ونشطت حركة التأليف والترجمة والنشر ، فكان أن أخذت المكتبات العامة والخاصة بالظهور والانتشار بشكل لم يسبق له مثيل .

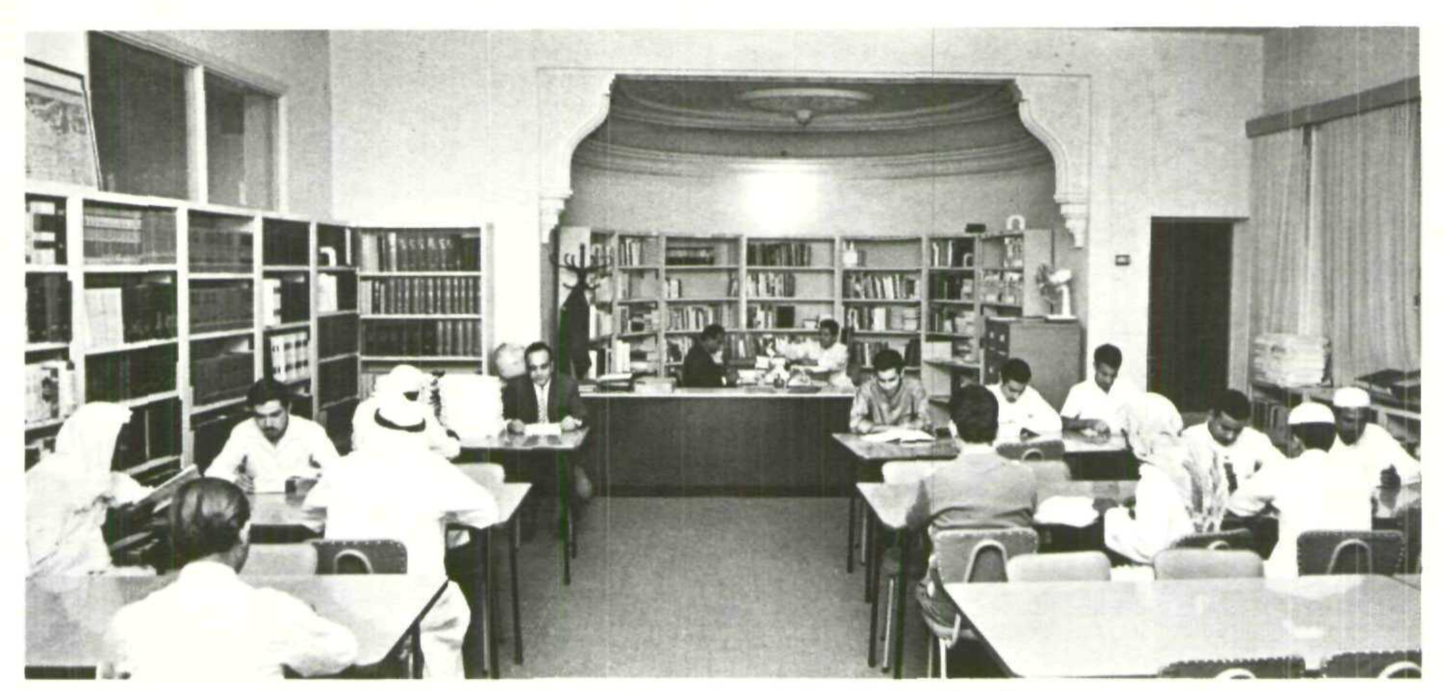
المكتبات في المملكة العربية السعودية

كان للحركة التعليمية ، التي شملت أرجاء المملكة العربية السعودية ان انتشرت المدارس والمعاهد الحديثة بشكل واسع حتى ليقال أن الدولة تفتتح ما معدله مدرسة جديدة كل ثلاثة أيام مما جعل منظمة « اليونيسكو » تشيد بالجهود الكبيرة التي تبذلها المملكة في نشر المعرفة والتعليم في أرجائها ، كما كان لهذه الحركة الأثر الأكبر في انشاء مكتبات عامة وخاصة يغرف طلاب العلم من مناهلها العذبة . وتحتضن هذه المكتبات بين جنباتها آلاف الكتب القيمة والمراجع التاريخية والمخطوطات النادرة .

المكتبات في المدينة المنورة

تزهو المدينة المنورة بسجلها الثقافي الحافل ، فقد عرفت عبر تاريخها الطويل العديد من العلماء والأئمة والأدباء الذين أغنوا التراث العربي بنتاجهم الفكري ومؤلفاتهم القيمة . ولذلك فقد كان طبيعيا أن تنشأ فيها مكتبات عديدة تحوي عيون الكتب والمخطوطات النادرة التي تبحث في شتى ميادين المعارف والعلوم والتي بلغ عددها ٨٨ مكتبة ضم معظمها فيما بعد في مكتبة عامة شاملة صيانة لما تحويه من كنوز نفيسة وذخائر نادرة . ولعل أبرز هذه المكتبات هي « المكتبة العامة » التي أنشىء لها مبنى ضخم بجانب الحرم النبوي الشريف ، وقد أنشئت عام ١٣٨٠هـ ، وتشرف عليها وزارة الحج والأوقاف . أما المكتبات التي ضمت الى هذه المكتبة فهي مكتبة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) ومكتبة الشفاء ، ومكتبة الساقزلي ، ومكتبة عمر حمدان ، والمكتبة الاحسانية ، والمكتبة القازانية والمكتبة العرفانية . وتضم هذه المكتبة العامة على رفوفها ما يقرب من ١٤٠٠٠ كتاب وألفي مخطوطة ، وهي لا تتبع نظام الاعارة الخارجية .

وتقوم على مقربة من « المكتبة العامة » في مبنى عريق ذي قاعة فسيحة تعلوها قبة جميلة ، مكتبة شيخ الاسلام المرحوم « أحمد عارف حكمت » التي تعتبر من أبرز المكتبات وأنفسها . وقد أسست عام ١٢٧٠هـ بعدد متواضع من الكتب والمخطوطات نمت مع الزمن وازداد عدد كتبها بعد وفاة صاحبها حتى أصبح يقارب من ٦٠٠٠ كتاب بين مخطوط ومطبوع في شتى العلوم من فقه وتفسير ولغة وتاريخ وأدب وفلك ورياضة .



مكتبة جامعة الملك عبد العزيز الأهلية في جدة تيسر للطلاب استقراء الحقائق والمعلومات التي يحتاجون اليها في البحث والاستذكار ..

وتمتاز مخطوطات هذه المكتبة باصالتها وجودتها وتنسيقها حتى أنها تشبه ، في ندرة نسخها ، المتاحف . وجدير بالذكر أن الجامعة العربية قامت بتصوير عدد من مخطوطات هذه المكتبة العريقة بغية تحقيقها وطبعها على نفقتها الخاصة . وأقدم مخطوطة تحتضنها مكتبة « أحمد عارف حكمت » هي مخطوطة « الأوائل » للعسكري ، وقد تم املاؤها عام ٣٩٥هـ . وتشرف على هذه المكتبة وزارة الحج والأوقاف .

وعلاوة على ذلك ، يوجد في الحرم النبوي الشريف مكتبتان هما ، « مكتبة الحرم الشريف » وهي تحتل الركن الشمالي الغربي عند باب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وتضم حوالي ٧٠٠٠ كتاب بين مطبوع ومخطوط ، و « المكتبة المحمودية » نسبة للسلطان العثماني محمود الثاني الذي أنشأها عام ١٢٣٧هـ ضمن المدرسة التي أسسها في الجهة الغربية من المسجد النبوي الشريف ، وقد خصص للمكتبة مكان في الطابق العلوي من المسجد . وتعود المخطوطات التي يقدر عددها بنحو ٣٠٠٠ مخطوط الى وقف الشيخ محمد عابد السندي المحدث الشهير رحمه الله ، ويشرف على هذه المكتبة وزارة الحج والأوقاف .

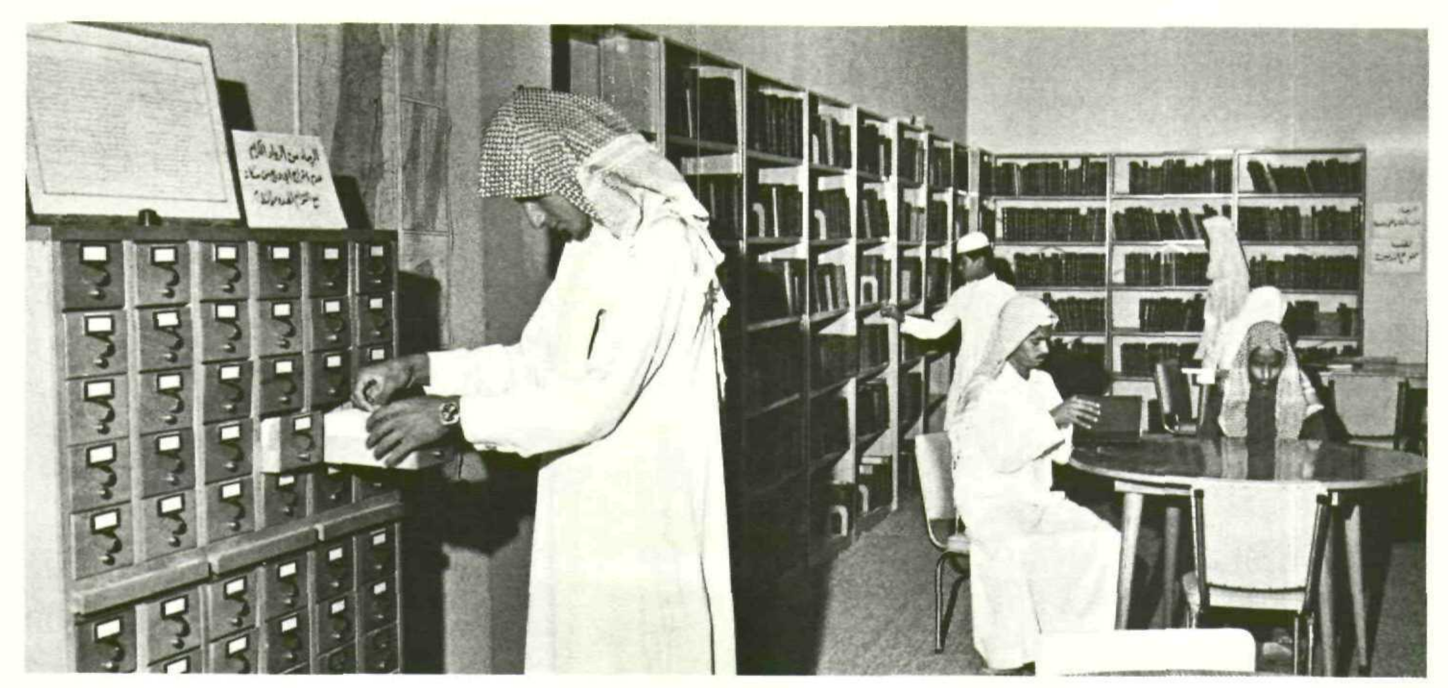
وفي الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة مكتبة تعتبر منهلا عذبا يستقي منه طلابها ألوان المعرفة والعلم . وقد أنشئت هذه المكتبة عام ١٣٨١هـ ، وتضم ما لا يقل عن خمسة وعشرين ألف كتاب وعددا من المخطوطات والوثائق المصورة والصحف والمجلات ، تبحث في مختلف أنواع الثقافة لا سيما ما يتعلق بالتراث الاسلامي واللغة العربية وآدابها ومختلف العلوم المكملة والمتصلة بهذه الموضوعات . وحري بالذكر أن الجامعة قد أوفدت عدة بعثات الى الخارج في الأعوام الماضية لتأمين الكتب المطلوبة والمراجع العلمية من البلدان العربية ، كما اهتمت بتصوير الكتب المخطوطة وجلبها الى مكتبة الجامعة ، ولا زالت الجامعة تواصل جهودها وتسعى في توفير المزيد من الكتب . هذا وقامت الجامعة مؤخرا بانشاء مبنى خاص للمكتبة .

وهناك أيضا المكتبة البساطية ، ومكتبة أهل الحديث التي أوقفها الشيخ أحمد الدهلوي رحمه الله وتحوي ما ينوف على ٥٠٠٠ كتاب ورسالة مخطوطة ومطبوعة معظمها من كتب التفاسير وصحاح الأحاديث النبوية الشريفة بالاضافة الى كتب علوم الدين واللغة .

المكتبات في مكة المكرمة

تكثر في مكة المكرمة المكتبات الخاصة التي بدأ أصحابها ، الشغوفون بالعلم ، بجمع الكتب والمخطوطات منذ زمن طويل ، ومن أبرز هذه المكتبات « المكتبة الماجدية » ، ومكتبة الدهلوي ، ومكتبة الشيخ سرور الصبان ، ومكتبة باروم ، ومكتبة الغزاوي وغيرها . وقد أدت هذه المكتبات الخاصة خدمات جلى في اثراء الحركة الثقافية والفنية والفكرية . أما أبرز المكتبات العامة في مكة المكرمة من حيث الضخامة والمحتوى فهي «مكتبة الحرم المكي الشريف» التي تعتبر مركزا للاشعاع الثقافي ومأوى للتراث الانساني الفكري .

وتشير الدلائل الى أنه كان في المسجد الحرام خزائن للكتب يعود تاريخها الى القرن الخامس الهجري . فقد جاء في كتاب « أخبار مكة » للأزرقي أن سيلا عارما حدث عام ٤١٧هـ ودخل الحرم ووصل الى خزائن الكتب فأتلف منها الشيء الكثير .. تلك الخزائن كانت نواة لمكتبة الحرم المكي الشريف التي كانت تسمى فيما مضى « بالمكتبة المجيدية » نسبة الى السلطان العثماني الذي أسسها وجمع فيها من شتات كتب التراث الموجودة في الحرم ، ثم زودها بمجموعات أخرى من عيون الكتب التي جلبها من الآستانة . وتوجد في هذه المكتبة اليوم رقيمة من الحجر المنحوت عليها خمس أبيات من الشعر باللغة التركية ، وعبارة « السلطان عبد المجيد في شوال سنة ١٢٦٢هـ » . وفي عام ١٣٤٦هـ ضمت «مكتبة الشرواني» الى



تزخر مكتبة « دار الكتب الوطنية » في الرياض بمختلف الكتب والمؤلفات التي يسهل الرجوع اليها باستعمال البطاقات الخاصة بها .

هذه المكتبة توخيا للفائدة العامة . وأهديت اليها مكتبة من وقف الشيخ عبد الحق الهندي ، كما ساهم بعض أمراء مكة وعلمائها في تزويدها بالكتب المخطوطة والمطبوعة القيمة كالشريف عبد المطلب ، والشيخ صالح عطرجي ، والشيخ علي الداغستاني ، والمرحوم الشيخ محمد نصيف وغيرهم . وقد ضمت اليها فيما بعد مكتبة « الشيخ عبد الستار الدهلوي » المتوفى عام ١٣٥٥هـ ، والتي تضم نحو ١٨٥١ كتابا ورسالة مخطوطة ومطبوعة في مختلف فروع الأدب والمعرفة وكان قد جعلها قبل وفاته وقفا على طلاب العلم والباحثين ، ثم نقلت بعد وفاته الى مكتبة الحرم المكي الشريف ووضعت في جناح خاص بها تحمل اسمه ، ولها فهرس مستقل .

أما تسميتها بـ « مكتبة الحرم المكي الشريف » فترجع الى عام ١٣٥٧هـ حين غدت تضم رصيداً ضخما من الذخائر النفيسة والكتب القيمة والمخطوطات النادرة ، وأصبحت فيما بعد ضمن المكتبات التي تشرف عليها الرئاسة العامة للاشراف الديني بالمسجد الحرام . وقد أوصى المرحوم الشيخ عبد الرحمن المعلمي ، أمين المكتبة سابقا ، باهداء مكتبته الخاصة الى مكتبة الحرم ، وبالفعل ضمت اليها عام ١٣٨٧هـ ، حيث كانت تضم ٦٤٢ كتابا أهمها المصورات لأهم المخطوطات النادرة . كما أهديت اليها في عام ١٣٨٨هـ « مكتبة الشيخ عبد الغني الزمزمي » رحمه الله ، و « مكتبة الحسن بن علي الادريسي » . هذا وقد اشترت الرئاسة العامة مكتبة الشيخ عبد الوهاب الدهلوي رحمه الله ، التي كانت تضم ٤٧١٦ كتابا ومخطوطا ، وضمتها الى مكتبة الحرم . حتى يتاح لطلاب العلم والمعرفة الافادة من مراجعها وبحوثها الأصيلة . ويبذل كل من الرئاسة العامة وادارة المكتبة حاليا جهودا منسقة ترمي الى تنظيم المكتبة وتطويرها لتظهر بالمظهر اللائق بها كمكتبة عامة تقع بجوار بيت الله الحرام . وتقدر محتويات المكتبة بحوالي ١٩ ألف كتاب ومجلد ، عدا الكتب الأخرى المطبوعة باللغات التركية والأردية والفارسية . كما تحتوي الى جانب ذلك على ألفي كتاب مخطوط ، منها « الغيلانيات » تأليف محمد بن ابراهيم بن غيلان بن عبد الله البزاز المتوفى عام ٤٤٠هـ ، وهو أقدم مخطوط في المكتبة يرجع تاريخ نسخه الى أوائل القرن الخامس الهجري ، و « مسند الموطأ » لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي الجوهري المتوفى عام ٣٨٥هـ ويرجع تاريخ نسخه الى عام ٦٩٣هـ ، و « الدرة الثمينة في فضل المدينة » لابن النجار المتوفى عام ٦٤٣هـ . ولعل من أبرز محتويات مكتبة الحرم المكي ، كتابة السيرة النبوية على ست وعشرين لوحة بخط جميل زينت حواشيها بالألوان الزاهية البديعة ، وهي تعتبر تحفة فنية رائعة . كذلك المصحف الشريف الضخم المخطوط ويقع في خمسة مجلدات كتبت بخط شبه كوفي ، وتضم كل صفحة فيها ستة سطور تزدان أطرافها بألوان جذابة . وتطبق المكتبة نظام الاعارة الداخلية .

ومن المكتبات الأخرى التي تفخر بها مكة المكرمة مكتبة « مكة المكرمة » التي تشرف عليها وزارة الحج والأوقاف ، وقد أسسها المرحوم الشيخ ماجد الكردي مدير الأوقاف بمكة المكرمة سابقا . وقد أنفق عليها أموالا طائلة حتى أصبحت في مصاف المكتبات الرائدة بمكة المكرمة . كما جلب لها كثيرا من الكتب المرموقة التي طبعت في أوروبا . وكان رحمه الله كلما سمع بكتاب جديد طلبه وضمه الى المكتبة مهما غلا ثمنه . والجدير بالذكر أنه أسس بجانبها مطبعة سدت فراغا كبيرا ، وطبع مؤلفات عدة لمشاهير علماء مكة . وكان يهدف من وراء ذلك التوسع المطرد لها ، الا أن المنية عاجلته ، فاشترى هذه المكتبة المرحوم الشيخ عباس قطان وأوقفها بعد أن أشاد لها مبنى ضخما . وقد كان لوزارة الأعلام اليد الطولى في ابراز هذه المكتبة في أبهج حلة ، وتنسيق محتوياتها ، فقد بلغ مجموع الكتب المطبوعة فيها حوالي (١٥٠٠٠) كتاب ، ومجموع الكتب المخطوطة ما ينوف على ١٢٠٠ مخطوطة . وهي تحتوي على طائفة كبيرة من كتب التفسير والحديث والأدب وسائر الفنون الأخرى . وجدير

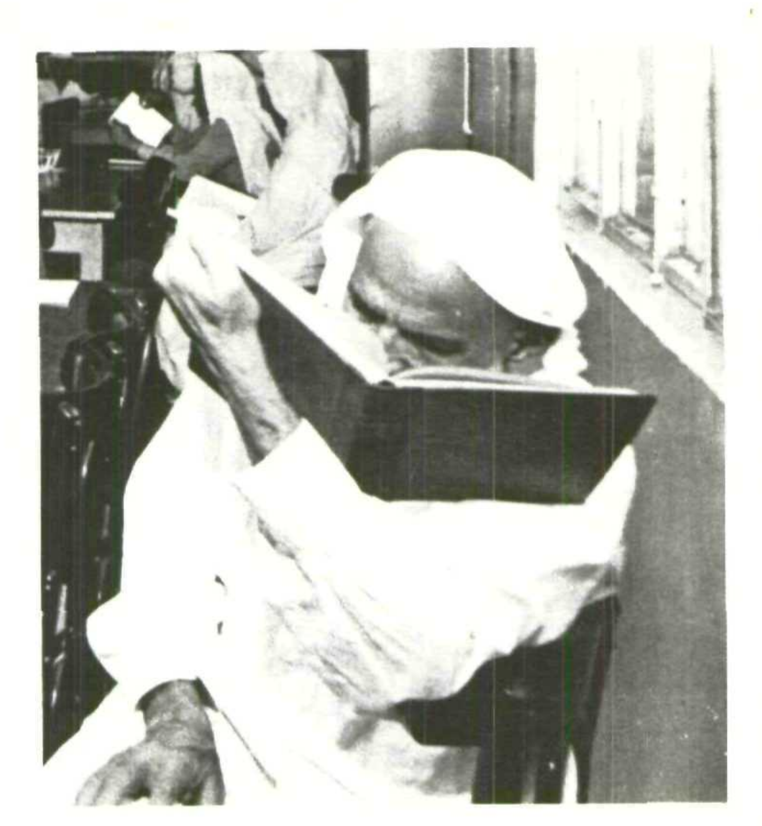
بالذكر أن الكثيرين من أصحاب المكتبات الخاصة قد تبرعوا بمكتباتهم لمكتبة « مكة المكرمة » العامة تقديرا منهم للفائدة الجمة التي ستعود بها هذه المكتبات العامة على الأفراد والجماعات . ولهذا أصبحت هذه المكتبة حافلة بالكتب القيمة زاخرة بالمخطوطات النادرة ، التي من بينها « ديوان أبي فراس الحمداني » في مخطوطة يرجع تاريخها الى عام ١٢٩٠هـ ، و « ديوان البهاء زهير » منسوخا بخط جميل ، و « القرى لقاصد أم القرى » للطبري ويرجع تاريخها الى محرم ١٢١٩هـ .

ومن المكتبات المهمة الأخرى في مكة المكرمة ، « المكتبة المركزية للتعليم العالي » الخاصة بطلاب كلية الشريعة وهيئتها التدريسية ، وفي عام ١٣٨٤ قامت كلية التربية بانشاء مكتبة مماثلة . وفي عام ١٣٨٨هـ تم دمج هاتين المكتبتين في مكتبة واحدة تتبع اداريا كليتي الشريعة والتربية بمكة المكرمة . وتضم هذه المكتبة بين جدرانها ما ينوف على ٥٠٠ ٧ مجلد تتبع في تصنيفها نظام ديوي .

المكتبات في الرياض

كان ايجاد ادارة عامة للمكتبات تحت اشراف وزارة المعارف من أولى ثمرات القرار الصادر عن مجلس الوزراء في ٢٤ محرم ١٣٧٩هـ ، والذي يقضي بانشاء دور حديثة للكتب في أمهات مدن المملكة العربية السعودية . وتضطلع هذه الادارة بتطوير حركة المكتبات العامة ، وتبني الأساليب الحديثة في تنظيمها ، وتزويد المكتبات التابعة لها بالكتب العلمية والأدبية . ويتبع ادارة المكتبات العامة الآن عشر مكتبات ، لعل أهمها وأضخمها على الاطلاق مكتبة « دار الكتب الوطنية بالرياض » . وقد أنشئت هذه الدار في عام ١٣٨٢هـ ، وكانت تعرف سابقا باسم « دار الكتب السعودية » . وفي عام ١٣٨٨هـ أطلق عليها اسمها الحالي . ويضم هذه الدار مبنى ضخم تحتل ادارة المكتبات العامة جزءا من الدور العلوي منه . وتشمل الدار على ست قاعات فسيحة هي : قاعة المطالعة التي تستقبل رواد المكتبة بأعداد كبيرة وخاصة في أيام العطل المدرسية ، وقاعة الصحف والدوريات وتضم الأعداد الجارية من الصحف والمجلات المحلية والعربية والأجنبية وهي مزودة بجهاز ميكروفيلم ، وقاعة الكتب الأجنبية وتضم مجموعات من الكتب باللغات الانجليزية والفرنسية والالمانية في جميع فروع المعرفة ، وقاعة المراجع التي تضم المصادر وأمهات الكتب في مختلف الموضوعات ، وقاعة الأطفال في الدور الأرضي من المبنى ، وهي تضم كتب الأطفال المصورة والمسلية والكتب العلمية المبسطة ، وقد جهزت بالوسائل المناسبة للأطفال ، وقاعة عرض الأفلام الثقافية والتي تلقى فيها أيضا المحاضرات وتقام فيها الندوات والمناظرات العلمية والأدبية . وتضم دار الكتب الوطنية بالرياض مجموعة من الكتب المطبوعة تقدر بنحو ٠٠٠ ١٥ مجلد ، و ١٠٧ من المخطوطات ، ونحو ٢٥ بكرة من الأفلام المصغرة . وتطبق الدار نظام الاعارة الداخلية ، ويبلغ معدل روادها حوالي ٥٠٠ ٢ رائد شهريا ، وتتبع طريقة « ديوي » العشرية في تصنيف محتوياتها .

أما المكتبات الأخرى التابعة لادارة المكتبات العامة فهي موزعة بين الدمام ، والهفوف ، وبريدة ، وعنيزة ، وحوطة سدير ، وشقراء ، وحوطة بني تميم ، وحريملاء . وتضم هذه المكتبات زهاء ٠٠٠ ٢٤ كتاب ومجلد . وتقوم الادارة العامة للمكتبات بين الفينة والأخرى بتزويدها بالكتب الهادفة والبناءة .

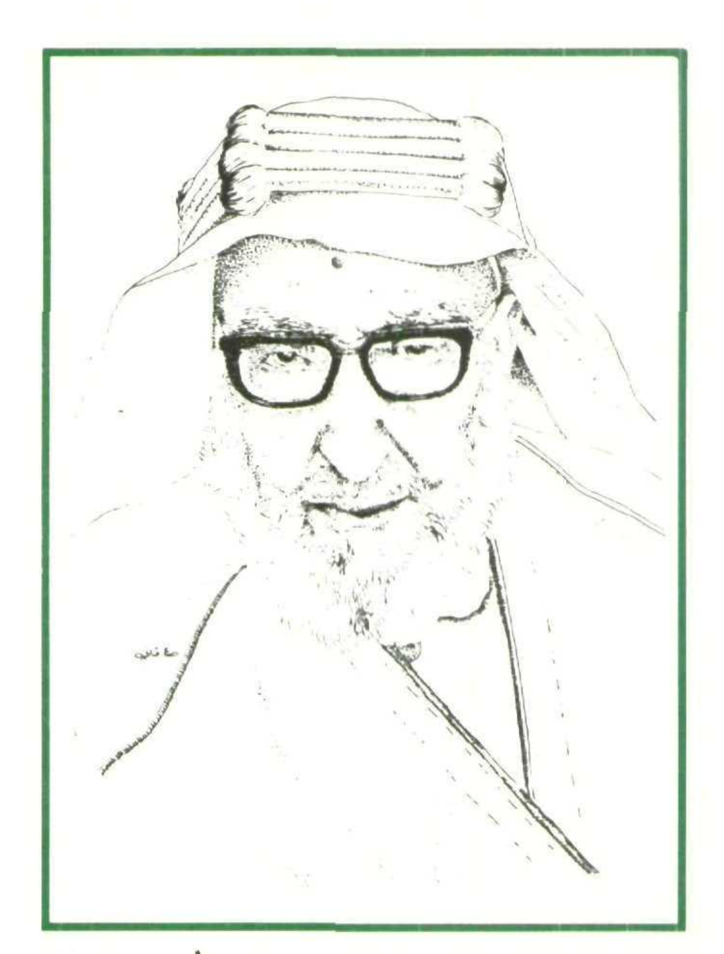


تعتبر مكتبة « الحرم المكي الشريف » من أبرز المكتبات الاسلامية ويؤمها علماء أجلاء فيجدون في رحابها مختلف المصادر والمراجع التي تيسر لهم سبل البحث والتحقيق ..



جانب من مكتبة كلية البترول والمعادن في الظهران ، وهي تزخر بآلاف الكتب والمراجع العلمية ذات الاختصاص التي تسهل على طلابها مهمة البحث والتحقيق ..

طلاب معهد الادارة العامة بالرياض يجدون في مكتبة المعهد التي تعتبر من المكتبات المتخصصة خير مكان للمطالعة والاستزادة من المعرفة .



العلامة الراحل والشيخ الجليل محمد بن حسين بن عمر أفندي نصيف الذي انتقل الى رحمة الله عن عمر يناهز ٩٠ عاما قضاها في خدمة العلم والمعرفة .. وقد كان رحمه الله رائدا من رواد العلم والفكر الذين أسهموا في ارساء قواعد الحركة العلمية والثقافية في المملكة العربية السعودية .. وقد خلف وراءه ينبوعا ثرا ومعينا معطاء من الكتب والمخطوطات ، وقد التقطت له هذه الصورة قبيل وفاته ، رحمه الله .

ومن المكتبات الأخرى البارزة في الرياض « مكتبة جامعة الرياض » ، ففي كل من كليات جامعة الرياض مكتبة خاصة تضم طائفة قيمة من الكتب العلمية والأدبية ومجموعة كبيرة من المراجع والمصادر الحية التي يستعين بها الطلاب في حقول تخصصهم . وتوجد لدار الجامعة « مكتبة مركزية » تقع في المبنى المجاور لكلية الصيدلة تزخر بأكثر من ثمانين ألفا من الكتب والمراجع الأدبية والعلمية العربية منها والأجنبية . وتهتم المكتبة المركزية بمخطوطات التراث العربي القديم والمراجع العربية النادرة اهتماما كبيرا . وتشمل المكتبة قسما خاصا لدراسة الكتب والمؤلفات الحديثة وتحليلها ، وتزويد مكتبات الجامعة كل حسب حاجتها ، بالكتب والمراجع الحية الحديثة ، كما تشمل قسما آخر لتصنيف الكتب وفهرستها بطريقة « ديوي » العشرية .

ومن بين المكتبات العامة في الرياض « مكتبة معهد الادارة العامة » التي أنشئت عام ١٣٨٢هـ ، وهي من المكتبات المتخصصة ، وتضم مجموعة مختارة من أحدث المراجع العامة والمتخصصة والكتب والأبحاث والدوريات التي تبحث في ميدان الادارة العامة وما يتصل بها من موضوعات . كما تضم مجموعة الوثائق والأنظمة الخاصة بالمملكة وبعض أنظمة وقوانين البلاد العربية والدراسات والبحوث والكتيبات الصغيرة ، ومطبوعات كل من هيئة الأمم المتحدة والمعهد الدولي للعلوم الادارية وجامعة الدول العربية . ويبلغ مجموع الكتب التي تحتضنها رفوف هذه المكتبة حاليا نحو ١٥ ألف كتاب ومجلد ما بين عربية وانجليزية ، تبحث في مختلف الموضوعات المتعلقة بمجال تخصص المعهد ، ويتبع في تصنيفها طريقة ديوي العشرية . وبالاضافة الى ذلك يوجد في مركز الوثائق في الوقت الحاضر ما يقارب من ٢٥ ألف وثيقة حكومية يرجع تاريخ بعضها الى عام ١٣٤٣هـ . وتضم أيضا ما ينوف على ٤٠٠ مرجع رئيسي باللغتين العربية والانجليزية . ومن بين محتويات المكتبة أيضا آلة قراءة وتصوير « المايكروفلم » لاستخدامها في عرض الأفلام الخاصة ببعض الوثائق وعددها نحو ١٥٠ بكرة . وينتفع بخدمات المكتبة الدارسون الحاليون في المعهد وخريجوه وخبراء المعهد وأساتذته وموظفوه ، والباحثون من الطلبة وغيرهم وجميع موظفي الدولة . ويعتبر نظام الاعارة الخارجية الذي تطبقه هذه المكتبة من أنجح النظم ، فهي تستخدم آلة كهربائية أوتماتيكية حديثة لتنظيم عمليات اعارة الكتب وتداولها دون الحاجة الى تعبئة استمارات ، وبذلك تعمل على توفير وقت الموظف المسؤول .

ومن المكتبات الأخرى في الرياض « مكتبة معهد العاصمة النموذجي » التي أنشئت عام ١٣٧١هـ ، وتضم زهاء ٧٠٠٠ مجلد . كما أن لدار الافتاء مكتبتين تقتصر محتوياتهما على الكتب الدينية واللغوية ، وهاتان المكتبتان هما « المكتبة السعودية » و « مكتبة ابن تيمية » .

المكتبات في جدة

تزخر جدة بالمكتبات الخاصة نظرا لازدهار الحركة الأدبية والعلمية فيها . وتكاد تكون « مكتبة العلامة الراحل الشيخ محمد نصيف » في طليعة المكتبات الخاصة . فهي حافلة بالقديم والحديث من التآليف وتغص رفوفها بالكتب القيمة . والمعروف ان الشيخ نصيف بدأ بجمع الكتب عام ١٣٢٣هـ ، فكان اذا حضر مجلس عالم من العلماء ورآه يطالع في كتاب معين عمد الى شراء نسخة منه ، وهكذا تجمع لديه مجموعة تضم أمهات الكتب ، نظمها وجعلها نواة لمكتبة . ومع الزمن أخذت محتويات مكتبته تكبر وتزداد حتى أصبحت اليوم تضم ما لا يقل عن عشرة آلاف مجلد يبحث معظمها في كتب التفسير والحديث والفقه والنحو واللغة والبلاغة والتاريخ القديم والحديث والأدب . هذا فضلا عن مجموعة من المخطوطات القديمة التي يربو عددها على ثلاثين مخطوطة أقدمها مخطوطة « تيسير الوصول في الحديث » لابن الديبع الشافعي المتوفى عام ٩٤٤هـ وعمرها حوالي ٣١٤ سنة . أما أثمن كتاب لدى مكتبة الشيخ نصيف ، فهو كتاب « المعجم المفهرس لأحاديث الصحاح » الذي كلفه ٢٥٠٠ ريال سعودي . وكان هذا العالم الضليع ، رحمه الله ، اسهاما منه في نشر الثقافة والعلم ، يطبع بعض الكتب على نفقته الخاصة . وقد أبدى الشيخ محمد نصيف — قبيل وفاته — رغبته لوقف مكتبته هذه حتى تكون نواة لمكتبة عامة في جدة .

ومن بين المكتبات الخاصة الأخرى « مكتبة الشيخ حسونة بن علي البسطي » . وقد بدأ الشيخ البسطي بجمع الكتب وهو في المدينة المنورة ، وعرف بميله الشديد الى اقتناء الكتب والمخطوطات الأصيلة . ولما استقر في جدة اشترى أرضا ابتنى عليها دارة جميلة أصبحت فيما بعد مؤئلا

لطلاب العلم ، فهي تفتح أبوابها للجميع صباح مساء . ولم يضن الشيخ على مكتبته بتزويدها بالكتب الثمينة والمجلات الدينية والعلمية والأدبية حتى غدت تحفل بكل أنواع المعرفة والعلوم . وقد ضرب الشيخ البسطي أروع مثل في العطاء عندما أوقف المكتبة والبناء على « مدرسة الفلاح » بجدة . ويجري حاليا فهرست محتويات المكتبة . وهي تضم عددا كبيرا من المجلات القديمة منها والحديثة والتي تصدر في الأقطار العربية والاسلامية وأقدمها مجلة « الجنان » التي صدر العدد الأول منها في يناير ١٨٧٦م . ومن المجلات الأخرى « الكوثر » و « المنهاج » و « النبراس » و « الذخيرة » و « ثقافة الهند » و « الكويت » و « الهدى الاسلامي » .

وفي جامعة الملك عبد العزيز الأهلية مكتبة مركزية تضم زهاء ٢٣ ألف مجلد ، بالاضافة الى العديد من المطبوعات والنشرات الدورية والمجلات. وتتلقى المكتبة باستمرار الكثير من الكتب والمجلدات والمطبوعات على شكل هدايا يتبرع بها المؤلفون أو أصحاب المكتبات الخاصة . وتتم عملية اختيار الكتب والمراجع بالتعاون بين جهاز المكتبة وأعضاء هيئة التدريس كل حسب اختصاصه . وتتولى الاشراف على شؤون المكتبة المركزية لجنة خاصة مؤلفة من ممثلين عن ادارة الجامعة وأعضاء هيئة التدريس والمكتبة . وقد الحقت بالمكتبة وحدة للأفلام المصغرة « الميكروفيلم » بلغ مجموع أفلامها ١٨٨ فلما ، منها ٤٦ بالعربية والبقية بالانجليزية . وتصدر المكتبة نشرات دورية عما يردها من كتب ومجلدات ، كما تقوم بتصوير المخطوطات القيمة التي تضمها رفوف المكتبات المحلية المنتشرة في جدة ومكة المكرمة والمدينة المنورة توطئة لفهرسة تلك المخطوطات .

المكتبات في المنطقة الشرقية

كان لتدفق الذهب الأسود من هذه المنطقة الأثر الأكبر في انعاش الحركة العمرانية التي حدت بوزارة المعارف الى تأسيس مكتبة عامة بالدمام عام ١٣٨٠هـ . وتضم هذه المكتبة حاليا ما يربو على أربعة آلاف كتاب يزيد عددها باستمرار ، لأن وزارة المعارف تمدها بالعديد من الكتب بين الفينة والأخرى . ومحتويات المكتبة مقسمة الى المعارف العامة ، والفلسفة ، وعلم النفس ، والديانات ، والعلوم الاجتماعية ، واللغة ، والعلوم البحتة ، والعلوم التطبيقية ، والفنون الجميلة ، والآداب ، والتاريخ ، والجغرافيا ، والتراجم والسير .

وهناك عدد من المكتبات الخاصة والعامة في كل من القطيف والاحساء والخبر والظهران تسهم الى حد كبير في نشر الوعي الثقافي بين المواطنين .

ففي مدينة القطيف توجد مكتبة عامة واحدة هي مكتبة مركز الخدمة الاجتماعية ، وكانت تعرف سابقا «بالمكتبة الأهلية» التي أسهم في تأسيسها عام ١٣٧٤هـ نفر من أبناء القطيف المثقفين . ولما افتتح مركز الخدمة الاجتماعية بالقطيف ضمت المكتبة الأهلية الى مكتبة المركز عام ١٣٨٧هـ ، وخصص لها ركن هادىء في مبنى المركز الضخم . وتبلغ محتوياتها حوالي ٣٠٠٠ كتاب ، تدور حول علوم الدين واللغة والأدب والتاريخ والفلسفة . ويطبق في هذه المكتبة نظام الاعارة الداخلية . وجدير بالذكر أن المكتبة تتلقى الكتب من وزارة المعارف ووزارة العمل والشؤون الاجتماعية الى جانب ما تتلقاه من كتب على شكل تبرعات من بعض الأفراد والمؤسسات الأهلية والشركات كأرامكو وغيرها .



فضيلة الشيخ حسونة البسطي يراجع بعض الكتب التي تحويها مكتبته ..



من أقدم المخطوطات التي تحويها مكتبة الشيخ محمد نصيف كتاب « تيسير الوصول الى جامع الأصول من أحاديث الرسول » لابن الديبع الشافعي المتوفى سنة ٩٤٤هـ .



مجموعة من المجلات التي تزخر بها مكتبة الشيخ الفاضل حسونة بن علي البسطي في جدة .. من أقدم هذه المجلات مجلة « الجنان » التي صدر العدد الأول منها في غرة المحرم ١٣٢٧هـ ..

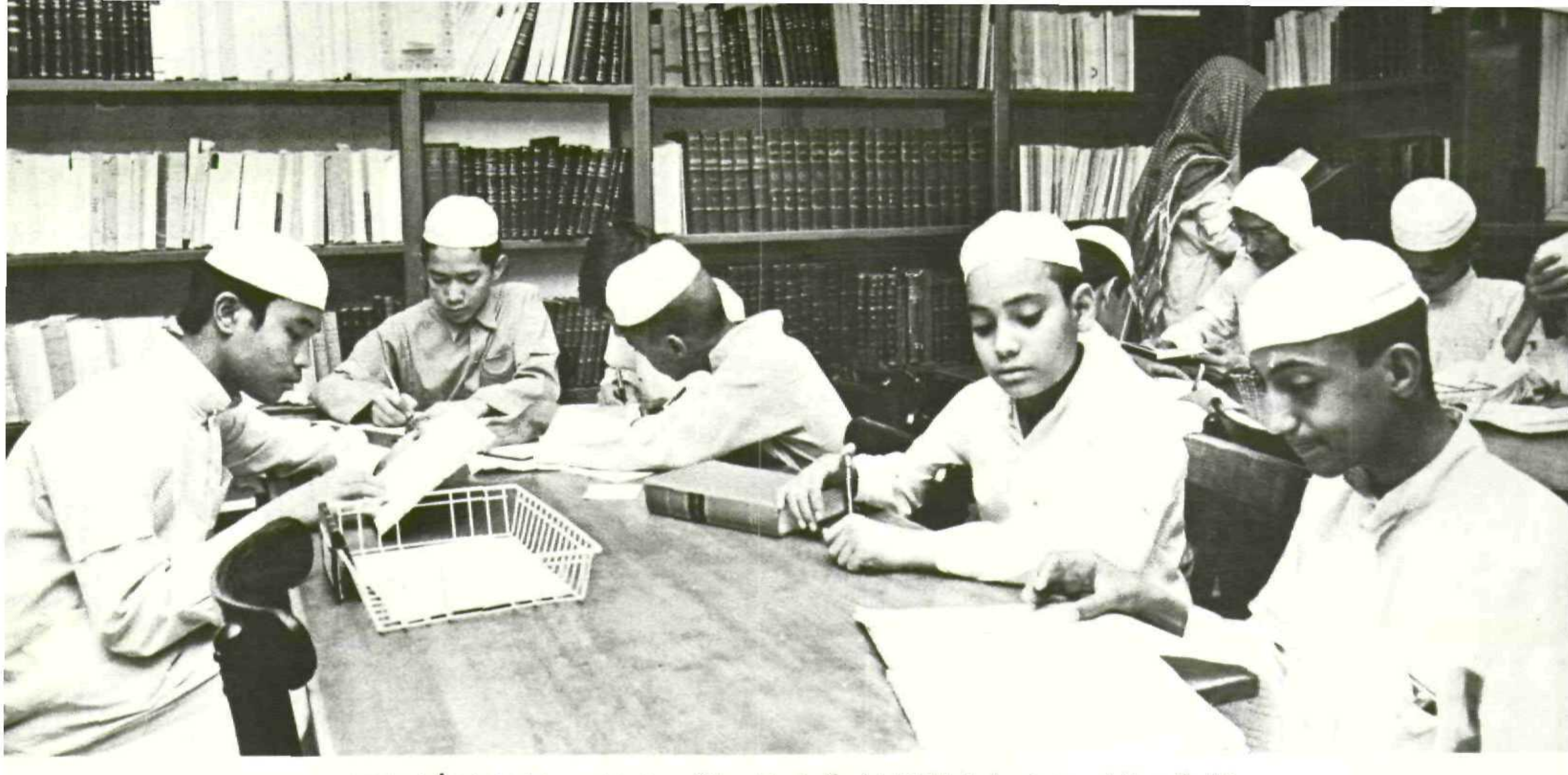
جانب من مكتبة الأبحاث العربية التابعة لأرامكو ، وهي تحتوي على أعداد كبيرة من الكتب والمراجع المختلفة التي يستعين بها الموظفون في انجاز أعمالهم المتنوعة .

هذا وتزخر القطيف بالمكتبات الخاصة ، سيما وأنها تضم نخبة من العلماء والفقهاء والشعراء والأدباء . ومن بين هذه المكتبات الخاصة على سبيل المثال لا الحصر : مكتبة الشيخ علي أبو الحسن الخنيزي ، ومكتبة الشيخ عبد الحميد الخطي ، ومكتبة الشيخ ميرزا حسين البريكي ، ومكتبة الشيخ علي المرهون ، ومكتبة الشيخ محمد سعيد الشيخ علي الخنيزي ، ومكتبة الشيخ فرج العمران ، ومكتبة الملا سعيد العوامي ، ومكتبة الملا علي الطويل ، ومكتبة الشيخ عبد رب الرسول رضا الشماسي وغيرها . وقد أسهمت هذه المكتبات بنفائسها بتنشيط الحركة الأدبية واثرائها .

وفي مدينة الهفوف نجد الى جانب المكتبة العامة التابعة لوزارة المعارف مكتبة عامة هي « المكتبة القطرية » التي تأسست عام ١٣٨٢هـ ، وقد بناها وأنشأها سمو الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني حاكم قطر سابقا ، الذي عرف عنه سعة اطلاعه وولعه بالكتب ، فضلا عن حبه في تيسير الكتب لكل من يطلبها ، فهو يتولى طبع مؤلفات عديدة قيمة بين قديمة وحديثة على نفقته الخاصة ليفيد منها كل طالب علم . وتقوم دار الكتب التابعة لوزارة المعارف بقطر بتزويد هذه المكتبة بالكتب من مختلف أنواع المعرفة بين الفنية والأخرى . وهي تضم الآن ما يقرب من ٦٠٠٠ كتاب في تفسير القرآن والفقه واللغة والتاريخ والاجتماع والدواوين الشعرية والمعاجم . هذا ويقوم أمين المكتبة الشيخ يوسف المبارك بتوزيع بعض الكتب التي ترد من وزارة المعارف بقطر بناء على تعليمات سمو حاكم قطر ليفيد منها العلماء والمؤسسات العلمية والمدارس والمعاهد .

ومن المكتبات الخاصة في مدينة المبرز مكتبة الشيخ المرحوم محمد بن عبد الله آل عبد القادر ، وهي تحتوي على كتب قيمة تبحث في التفسير والفقه وعلوم اللغة والأدب .

ومن المكتبات التي تزهو بها الظهران « مكتبة كلية البترول والمعادن » ، وهي تعتبر من المكتبات المتخصصة نظرا لما تحتويه من كتب في العلوم والتكنولوجيا يستعين بها طلاب الكلية في حقول تخصصهم ، كما يجد



يقبل طلاب المدارس بشغف على قاعة المطالعة في مكتبة « الحرم المكي » لينهلوا من مناهلها العذبة ألوان الثقافة .

فيها أساتذة الكلية وموظفوها مختلف المراجع والكتب العلمية التي تهمهم . وقد أنشئت هذه المكتبة في شهر رجب عام ١٣٨٥هـ (سبتمبر ١٩٦٥م) . وفي غضون هذه المدة القصيرة نسبيا غدت من المكتبات الرفيعة التي يجد فيها المرء مبتغاه . اذ تمتاز بدقة تنسيقها . وتضم المكتبة زهاء خمسة وعشرين ألفا من الكتب بما في ذلك الموسوعات والمعاجم والمراجع معظمها باللغة الانجليزية . الى جانب الكتب الأدبية والتاريخية والاسلامية باللغة العربية . وعلاوة على ذلك هناك ركن خاص بالمجلات المتنوعة ترد المكتبة بانتظام ويربو عددها على مائة ألف مجلة ونشرة علمية . وقد بوشر بتجليدها حفاظا عليها وتسهيلا للرجوع اليها والاستفادة منها . والجدير بالذكر أن مكتبة كلية البترول كانت تتبع في تصنيف الكتب في الماضي الطريقة العشرية المعروفة بنظام ديوي . ولكن بعد دراسات أجريت مؤخرا وجد المسؤولون في المكتبة أن نظام مكتبة الكونجرس الأمريكي هو الأفضل بالنسبة الى مكتبتهم لأنه قابل للتوسع واحتمال الخطأ فيه ضئيل . ولذلك بدأت المكتبة تتبع هذا النظام الأخير في تصنيف وتنظيم محتوياتها . وفي المستقبل القريب سيكون هناك مبنى خاص بالمكتبة مؤلف من أربعة أدوار ضمن مشروع الحرم الجامعي الجديد .

وعندما يتم انشاء مبنى المكتبة الجديد يتوقع أن تضم في بداية الأمر نحو ربع مليون مجلد ، ثم يزداد عددها تدريجيا حتى يصل الى أربعمائة ألف مجلد . هذا وسيخصص قسم من المكتبة لاستعماله كمركز للدراسة بوسائل الايضاح السمعية والبصرية ، كما ستكون هناك أماكن فسيحة للمطالعة الخفيفة ، بالاضافة الى مقصورات متنقلة للدراسة الجدية . وستستخدم الآلة الحاسبة الألكترونية في مساعدة الدارسين على العثور على الكتب والمراجع المطلوبة وفي عمليات جرد الكتب والمراجع وتسجيلها وضبطها .

ومن بين المكتبات في الظهران « مكتبة الأبحاث العربية » ، وهي جزء من ادارة العلاقات بالحكومة المحلية التابعة لشركة الزيت العربية الأمريكية . وقد تأسست هذه المكتبة عام ١٩٤٧م ، وتضم بين جدرانها ما ينوف على ١٥٠٠٠ كتاب يبحث معظمها في الشؤون التاريخية والثقافية والأدبية واللغوية لبلدان الشرق الأوسط بالعربية والانجليزية وجزء ضئيل منها بالألمانية والفرنسية والايطالية ، فضلا عن المعاجم والموسوعات والمخطوطات . هذا وترد المجلات والصحف والنشرات الدورية باللغتين العربية والانجليزية الى المكتبة بانتظام . وفي المكتبة جهاز لقراءة الأفلام المصغرة« Microfilm Reader » وقد بلغ ما لدى المكتبةما يقرب من ١٦٠ ألف قدم من أشرطة الأفلام المصغرة التي جرى تصوير معظم المجلات السعودية الرائدة عليها . ويقوم أمناء المكتبة بحفظ الصحف السعودية في مجلدات ضخمة ليرجع اليها كل من أراد أن يستكمل بحثا أو ينشد حادثة معينة . وتسير المكتبة في ترتيب محتوياتها على نظام « ديوي » .

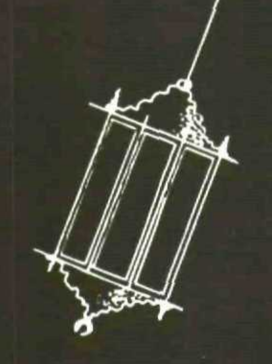
وبجانب مكتبة الأبحاث العربية » تقوم مكتبة ضخمة هي « المكتبة الفنية المركزية » . وهي تحوي أعدادا كبيرة من الكتب والمراجع العلمية التي تتعلق بصورة رئيسية بهندسة البترول ، فضلا عن الجيولوجيا والفيزياء والكيمياء والرياضيات . وقد تأسست هذه المكتبة عام ١٩٥٦م لتزويد موظفي الشركة من فنيين ومهندسين بالمعلومات التي تتعلق بأعمالهم . وتضم المكتبة حوالي ٢٢ ألف كتاب و ٣٠ ألف مجلة متنوعة تتناول الشؤون العلمية وخاصة الزيت ، بالاضافة الى الموسوعات وأحدث الكتالوجات والتقارير السنوية لمعظم شركات الزيت . كما تضم نسخا من دليل التجارة العلمي . وهي تتلقى سيلا من المجلات والنشرات الدورية وما يقرب من مائتي كتاب كل شهر .

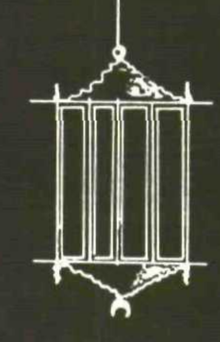
وبعد ، تلك هي جولة قصيرة في عدد من المكتبات العامة والخاصة التي تحتضنها أمهات المدن في المملكة العربية السعودية ، والتي تعتبر دعامة أساسية في صرح النهضة الفكرية ومرتعا خصبا لنشر الوعي الثقافي بين المواطنين ■

سليمان نصر الله

تصوير : عبد اللطيف يوسف ، علي محمد خليفة

من وحي رمضان





(رمضان) يا أملوحةَ الإيمانِ ... صلى الالهُ عليكَ في القرآنِ
قد عشتُ « مكةَ » في نداكَ وإنني ... أصبو الى لقياك كلَّ أوانِ
لما نهدتُ الى المُصَلّى خِلتُني ... في جوقةٍ بيضاءَ للألحانِ
ترتيلُها « الذِّكرُ العزيزُ » كأنه ... سَجْعُ الحَمَام بوارفِ الأغصانِ
وركوعها وسجودها في زمرة ... فكأنما هي واحدٌ لا اثنانِ
يا « كَعْبَةَ » طوّفتُ فيها في الدّجى ... أسجو لفكرتها مدى الأكوانِ
أتلو عليها آيةً منسوجةً ... بِمُذَهَّبٍ مِسْكِيَّةِ الأردانِ
لما دنا فرض العِشاء وجدتُني ... كزحام يوم الحَشْر في الغُفْرانِ
يا للجَمال بمشهدٍ عاينتُه ... منها عليه سكينة الدّيّانِ

° ° °

لما انحدرتُ الى (المدينة) خِلتني ... طيفاً يزور مَنَازِلَ الأعيانِ
فخلدتُ للتأميل أبعَثُ بهجةً ... رددتُ ذكراها بسحرِ بيانِ
بأبي (المُحَمَّد) وهو عينُ زمانه ... يأتي له « رمضان » طيَّ طِعانِ
(بدرٌ) تكونُ وأين من غمراتها ... أعتى الغمار تعج بالفرسان
جاءت « قريشُ » بخيلها وبِرَجلِها ... فعنت وذاقت علقم الخُسْرانِ
قال « الرسول » بوجه أعداءِ التّقى ... شاهَتْ وجوهكُمو على المُرّانِ
وتَبَدّدَتْ حَمَلاتُهُمْ فكأنها ... أضغاثُ أحلامٍ بغير جِنَانِ
فاسمَعْ مناحاتٍ على آبادِها ... زَحَفَ العَدُوّ مشتّتَ الرّجْحانِ
قد زرتُ تلك الأرضَ أشهَدُ يومها ... متمَثّلاً بأشاوسِ الشّجعانِ
(رمضانُ) مِنْ « بَدْرٍ » و « بَدْرٌ » عنده ... الذكرى لديه تَهُبّ في « رَمضانِ »
يا وقعةَ حقّتْ عليها نِعْمَةٌ ... تسمو على الدنيا من الرحمنِ

للشاعر الدكتور زكي المحاسني

هي خطّطَتْ تاريخَ إسلامِ الورَى ... الخُلْدُ والعَلْيا بها سِيّانِ
قد أنْزِلَ القرآنُ في آلائه ... نورَ الهُدى لرجاحَةِ الإنسانِ
شَهْرٌ عليه من العِبادة زينَةٌ ... ملءَ النفوس تفيض بالإيمانِ

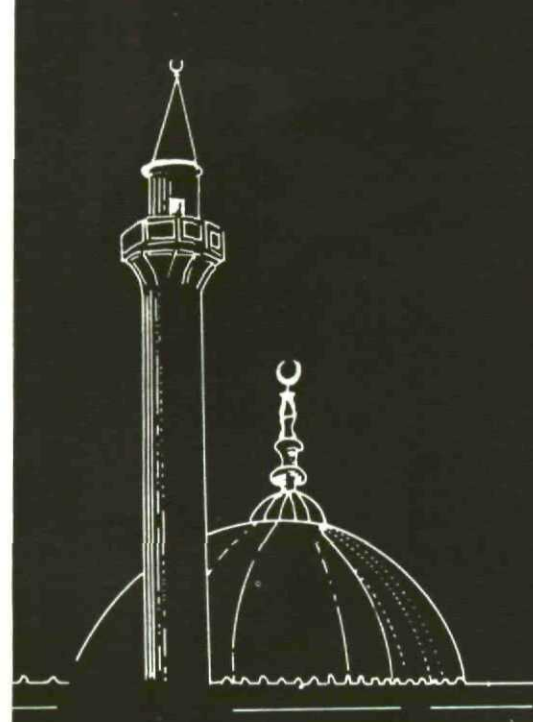
° ° °

سلّمْ على أهْل الحِجازِ وقُلْ لَهُمْ ... قد كانَ يَهْنَأُ بَيْنَكُمْ وُجْداني
دارُ السّعوديّينَ يَنْبُعُ سعدها ... وتجودُها الخيرات بالهَمَلانِ
وسألتُ عن أرضِ «عُكاظ» عندها ... ببطاحها يومَ التقى الجمعانِ
جمعُ التجارةِ في عميم مكاسب ... وجماعةُ الشعراءِ في التّبْيَانِ
لو عاد بي دهري لجئتُ مُجلبَباً ... بعباءَةٍ جلّتْ عَنِ الأبدانِ
أنْشَدْتُ شِعْرِيَ عِنْد خَيْمَةِ شاعرٍ ... يُنْمى النبوغُ به الى ذُبْيانِ
ولقيتُ «خنساء» الحِسان مدِلّةً ... بقصائدٍ جَمَعَتْ مَصَاغَ جُمَانِ
يا ليت حظي ما الحياة وما الهوى ... لولا البيانُ بشعرِيَ الفَيْنانِ
(رمضان) لا أبْغي أوانَ ذُهوبِه ... يا ليتَ عاماً جادَهُ بعِيانِ
لا أبتغي أنّي أراه مواصِلي ... حيناً كوَصْلَةِ مَعْشَرِ الضّيفانِ
ناحتْ له «أمّي» لدى توديعه ... حتّى تخضّل كالدم الجَفْنانِ
راحت من الدنيا وأبقت حسرتي ... من بعدها رَهْنَ البُكا العينانِ
سكنت على «قَيْسونَ(١)» في شام الدّنى ... والغوطتانِ أمامَهَا نُورانِ
ويجيئُني (رمضانُ) وَهْيَ رهينةٌ ... الذكرى أعاوِدُها على أحزاني

° ° °

قل (للرياض) وان فيها «عاهلاً» ... للعرب جاء كمنحة الأزمان
ويجيئها (رمضان) مكرور الهدى ... بعهوده في نصرة وأمان

(١) جبل الشام الاشم والمطل عليها



التَهذيب بالوَسيط الكيماويّ

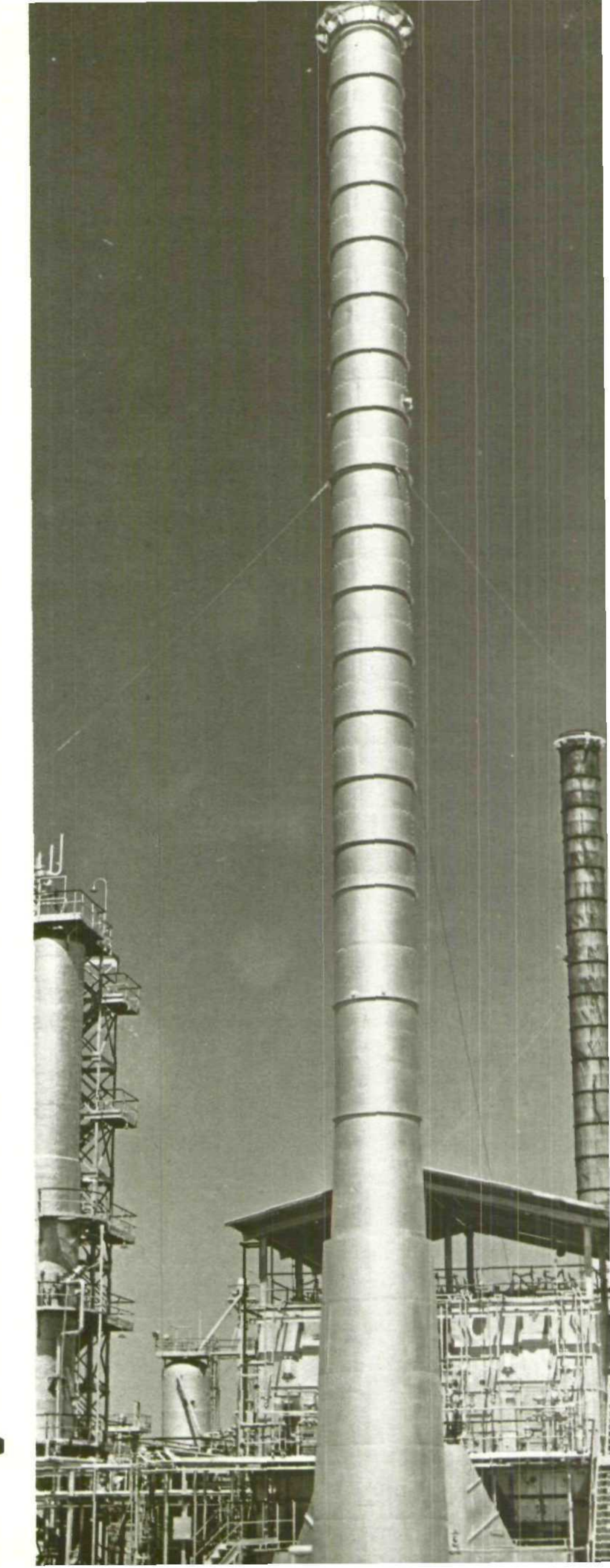
عرفَ الانسان الزيت كمادة خام منذ أزمان موغلة في القدم ، واستعمله في أغراض البناء والطلاء والاضاءة والحروب وتعبيد الطرق وغيرها . الا انه بالرغم من معرفته لهذه المادة وادراكه لفوائدها الجمة ، فان استعماله لها ظل محدودا نظرا لافتقاره آنذاك الى الوسائل والأساليب الفعالة لاستخراجها من باطن الأرض وتحويلها الى مشتقات ومنتجات عديدة ينتفع بها في أغراض شتى .

على انه في أعقاب النجاح الذي أحرزه الكولونيل « دريك » في حفر أول بئر منتجة للزيت في عام ١٨٥٩ ، وهو العام الذي اعتبر بداية عهد صناعة الزيت ، امتدت محاولات البحث والتنقيب عن الزيت ، فقامت شركات عديدة في أجزاء مختلفة من المعمورة للمساهمة في استخراج هذه الثروة من مكامنها واستغلالها ، وأشيدت المصافي والمعامل لتكرير الزيت الخام وانتاج مشتقات عديدة نافعة منه تفي باحتياجات الانسان ومتطلباته التي لا حصر لها .

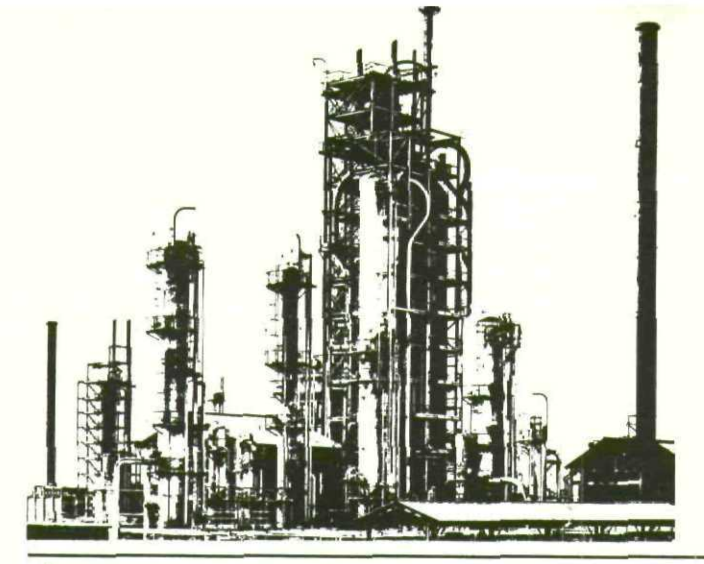
تكوين الزيت وتركيبه

والمعروف ان خواص الزيت الخام الطبيعية تختلف باختلاف أنواعه ، فبعضها ثقيل ولزج ، والبعض الآخر خفيف ورائق . وتختلف درجة الوزن النوعي للزيت الخام من نوع الى آخر ، كما تختلف نسبة الكبريت الذي يحويه .

أما من حيث تكوينه فهو يتكون من جزيئات تحتوي على الهيدروجين والكربون ، وهما عنصران أساسيان من العناصر الكيمائية المعروفة . وتحتوي جزيئات الزيت الخام على أعداد مختلفة من ذرات الايدروجين والكربون متحدة بعضها ببعض بأشكال وأعداد ونسب مختلفة .. فبعض المركبات البترولية الثقيلة ، كالاسفلت ، يحتوي على عدد كبير من ذرات الكربون ، أما المركبات الأخف فتحتوي عددا أقل نسبيا من ذرات الكربون ، كما هو الحال في المشتقات المتطايرة كالبنزين .



الفرن الضخم الذي يتوسط وحدة التهذيب الحراري في رأس تنورة حيث يجري تكسير جزيئات النفتا واعادة تركيبها بغية تحسينها ورفع درجة الأوكتان فيها .



منظر عام لوحدة التهذيب الايدروجيني التابعة لمعمل التكرير في رأس تنورة حيث يبدو المفاعل الضخم . ويشكل هذا المفاعل جزءا هاما من وحدة التهذيب .

وبالاضافة الى الجزيئات الايدروكربونية ، يوجد في الزيت ، في كثير من الأحيان ، شوائب كثيرة ، كالماء والأملاح ومركبات الحامض والكبريت ، وهذه الشوائب تختلف نسبتها من نوع الى آخر ، وذلك بسبب اختلاف العوامل التي أدت الى تكوين كل نوع .

بيد ان الحاجة الملحة لانتاج أنواع أفضل من الوقود تتفق وروح التطور الذي أصاب الآلة والمحرك ذا الاحتراق الداخلي ، قد حفزت رجال الزيت للعمل على تطوير طريقة فعالة تفي بمقتضيات هذا التطور المتنامي في حقل صناعة المحرك والآلة .. وقد جاءت هذه الفكرة نتيجة طبيعية للطلب المتزايد على أنواع أفضل من الوقود تعتمد عليها فعالية المحرك الى حد بعيد .

تهذيب الزيت الخام

وفي مطلع القرن الحالي اكتشف رجال التكرير ظاهرة تبين لهم من خلالها انه في حال تسخين الزيت الخام الى درجات عالية من الحرارة فان ذلك يؤدي الى الحصول على منتجات بترولية ذات نوعية عالية ، مثل الكيروسين .. ونتيجة لهذه الظاهرة التي اكتشفها رجال الأبحاث ، فقد تمكنوا خلال الثلاثينات من القرن الحالي من تطوير طريقة لتكسير جزيئات الزيت الخام واعادة تركيب أجزاء معينة من مركباته وتهذيبها ، وذلك باستخدام الوسيط الكيماوي . وتعرف هذه الطريقة علميا باسم « التكسير — Cracking » . ومنذ ذلك الحين ورجال الأبحاث ما انفكوا يوالون دراساتهم ومحاولاتهم سعيا وراء أفضل الأساليب وأجدى الوسائل الرامية الى تطوير صناعة الزيت تطويرا يتفق ومتطلبات العصر واحتياجاته .

والتهذيب يشكل في حد ذاته مرحلة من مراحل التكرير التي تعتمد بصورة عامة على تكسير جزيئات المنتوج البترولي تكسيرا دقيقا بحيث يكون التغيير في حجم جزيئاته الهيدروكربونية وتركيبها مطابقا لمواصفات معينة ، وذلك للزيادة من قدرة هذا المنتوج على الاشتعال .. ولذا يمكن القول بأن « التهذيب — Reforming » عملية مزدوجة ، فهي تجزئة من ناحية ، واعادة تركيب الجزيئات من ناحية أخرى .. وتتم هذه العملية اما بالحرارة ، وهو ما يعرف بـ « التهذيب الحراري — Thermal Reforming » أو بالاستعانة بوسيط كيماوي ، وهو ما يعرف بـ « التهذيب بالوسيط الكيماوي Catalystic Reforming » مع الأخذ بعين الاعتبار ان الغاية الأساسية من فكرة التهذيب بالوسيط الكيماوي هو زيادة قدرة منتجات البترول ، كالبنزين مثلا ، على الاشتعال ورفع درجة الأوكتان فيه . ولذلك يعتبر الوسيط الكيماوي بمثابة عامل مساعد لاحداث التفاعل الكيماوي ، دون أن يطرأ عليه أي تغير كيماوي لدى اتمام عملية التفاعل هذه .

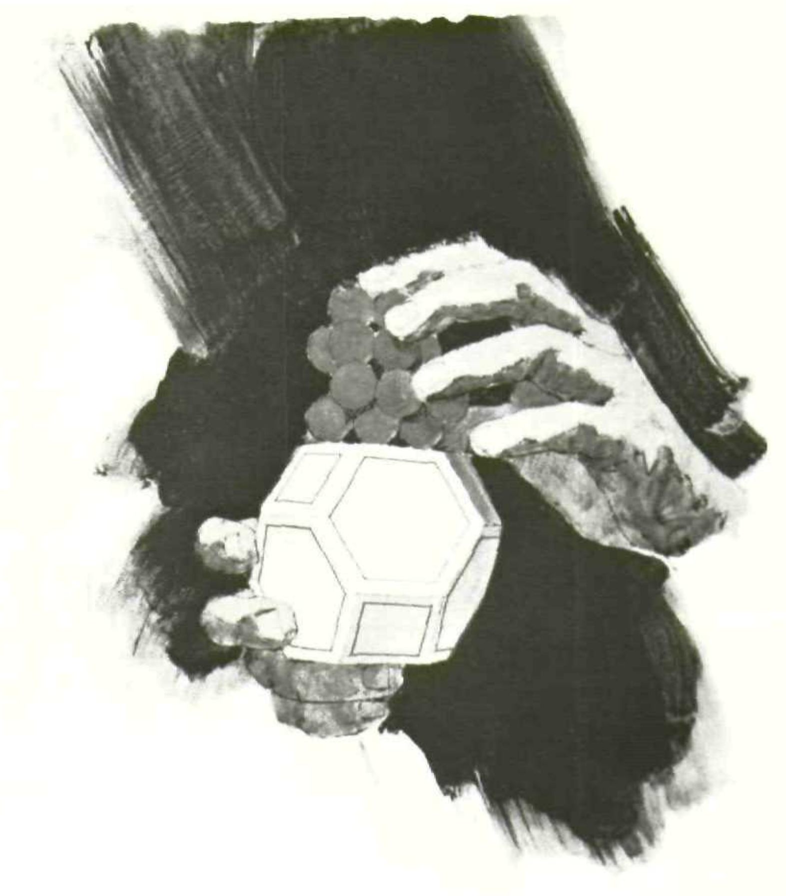
ومن بين طرق التهذيب التي تعتمد الوسيط الكيماوي والتي يجري استخدامها في معامل التكرير ، طريقة التهذيب البلاتيني — Platforming » أي تهذيب جزيئات الزيت باستخدام وسيط كيماوي مادته الأساسية البلاتين .. وقد استحدثت هذه الطريقة عام ١٩٤٩ ، وهي تعتمد وسيطا كيماويا يتألف من مركب ناقل لأكسيد الألومنيوم « Alumina » يحتوي على نسبة من البلاتين تتراوح بين ٠,٤ و ٠,٧٥ في المائة بالوزن ، وذلك حسب النوع المطلوب انتاجه .. ويضاف الى هذا المركب نسب معينة من الكلور أو الفلور ، أو كلاهما معا ، كمواد منشطة .

والجدير بالذكر ان عملية تهذيب النفتا الثقيلة بالوسيط الكيماوي ينتج عنها صنف غني بالمركبات العطرية والبارافينية المتماكبة ، أي عناصر ذات قدرة عالية على الاشتعال .. هذا ويمكن تجديد الوسيط الكيماوي في موضعه الى أن تخف فعاليته فيسحب عندئذ ويستبدل ، كما يمكن في الوقت نفسه استخلاص البلاتين من الوسيط المستهلك . وقد تتبع هذه الطريقة في صنع عناصر بنزين السيارات الممتاز أو في انتاج المهذبات البلاتينية الغنية بالعطريات التي ربما تستخدم في انتاج بنزين الطائرات أو كمصدر للعطريات في صناعة البتروكيماويات .. ويتولد عن اتباع هذه الطريقة كمية أكبر من الهيدروجين تستعمل في عملية انتزاع الكبريت بالهيدروجين وعمليات الهدرجة الأخرى (التكسير) ، كما ان عملية التهذيب تتم في جو هيدروجيني يمنع تكون الفحم على الوسيط الكيمائي ويبقيه نشطا .

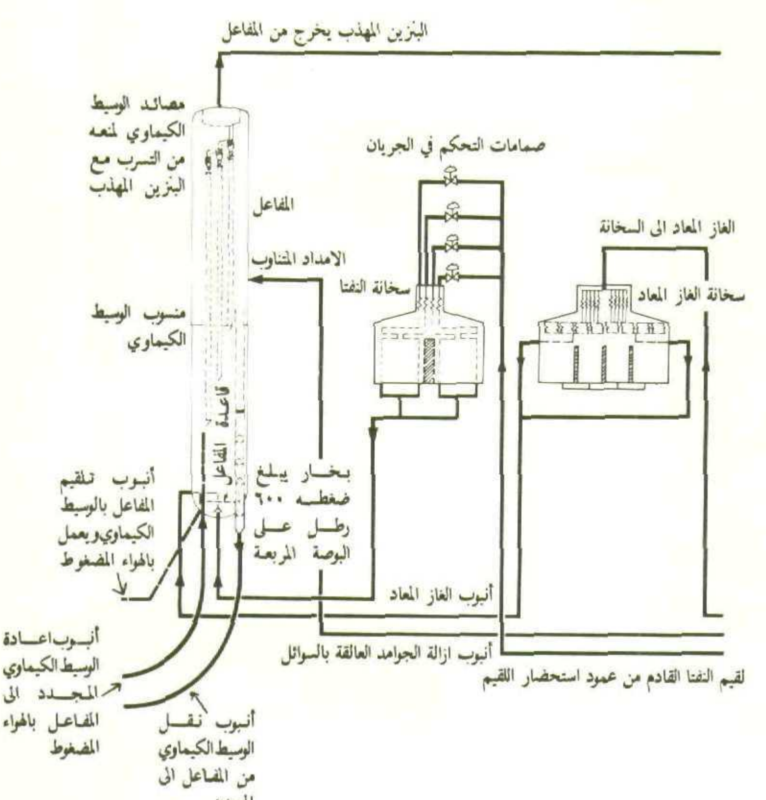
كان البلاتين ، حتى وقت قريب ، يستعمل بصورة عامة كوسيط كيماوي في عملية تهذيب البنزين لدى معظم شركات الزيت في العالم

المفاعل الضخم في وحدة التهذيب الايدروجيني برأس تنورة حيث يتم تهذيب المنتجات بالوسيط الكيماوي .

بعض مرافق معمل التكرير التي يتم خلالها معالجة منتجات الزيت الخام وتحسين مواصفاتها .



عينة لأحد الوسائط الكيماوية المستخدمة في تهذيب المنتجات البترولية وتحسين نوعيتها .



رسم مقطعي للمفاعل الذي تتم فيه عملية التفاعل بالوسيط الكيماوي في رأس تنورة ، بالمملكة العربية السعودية .

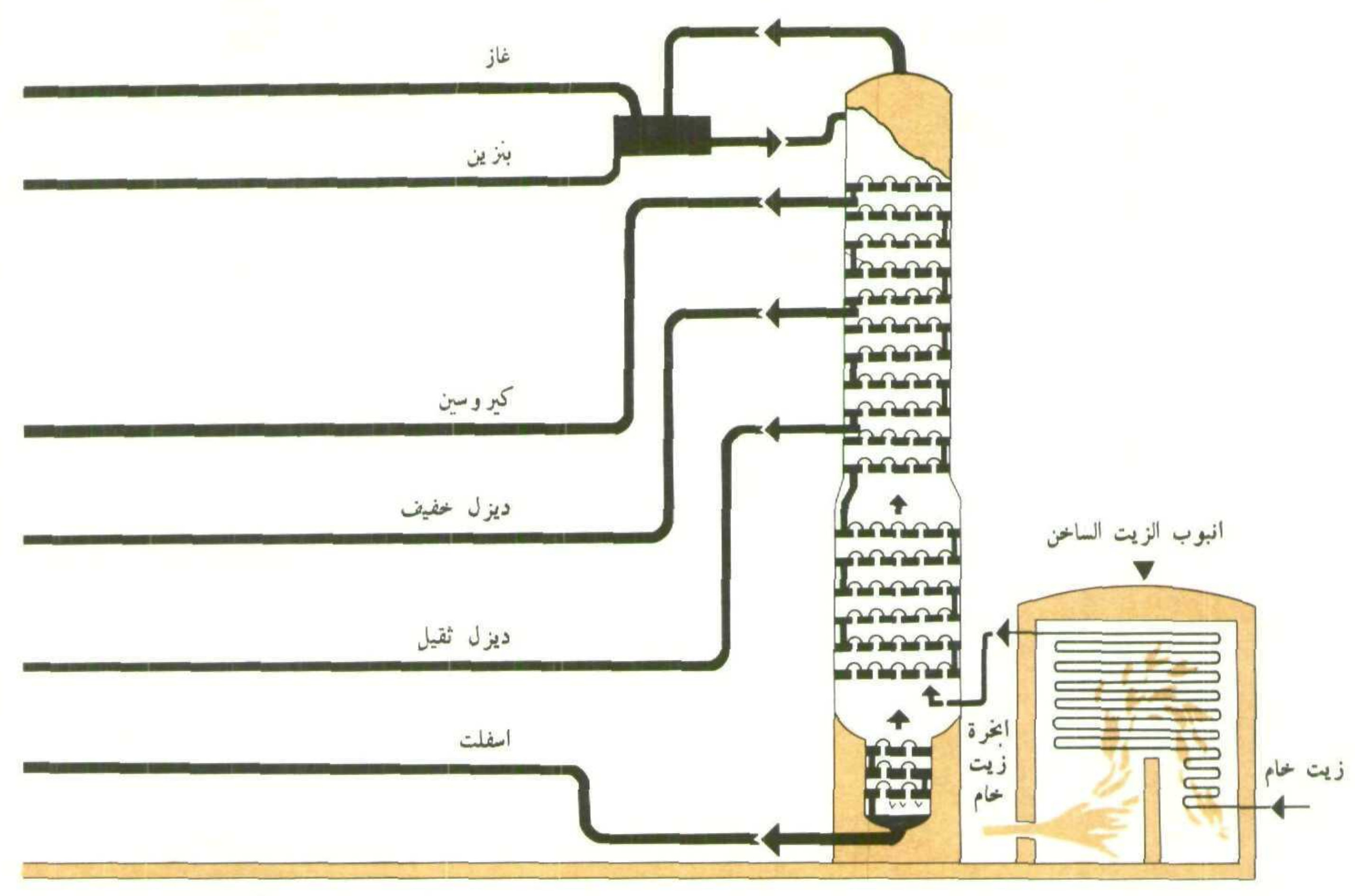
بغية تحسين مواصفاته ورفع درجة الأوكتان فيه ، وذلك على الرغم من تكاليفه الباهظة التي تبلغ نحو ثمانمائة ريال سعودي للأوقية الواحدة مما قد يضطر الشركة المستخدمة لهذا النوع من الوسائط الكيماوية لاستثمار مبالغ باهظة قد تبلغ عشرات الملايين من الريالات .

وعلى أثر نجاح استعمال البلاتين كوسيط كيماوي في عملية تهذيب المنتجات ، وجد العلماء ان زيادة الطلب على هذا العنصر وما صاحبه من تعقيدات في معامل التكرير ، يدعوان الى ضرورة اجراء تحسينات على هذا الوسيط الكيماوي وعملية التهذيب نفسها ، تشمل استخدام مادة أخرى تمزج مع عنصر البلاتين ، وذلك لرفع درجة انصهاره ، وبالتالي للتقليل من الحاجة اليه .

غير ان رجال الكيمياء لم يتوانوا عن مواصلة البحث عن عناصر أخرى تستخدم كوسائط كيماوية في عملية التهذيب . فقد اكتشفوا عقب اجراء سلسلة من التجارب على عناصر مختلفة ، بأن الرينيوم يمكن استخدامه ، الى جانب البلاتين ، كوسيط كيماوي فعال . ولكن النتائج الأولية لهذه التجارب لم تكن مشجعة . إلاّ ان العلماء لم يتقاعسوا عن المضي في تجاربهم ، وانما واصلوا محاولاتهم حتى وفقوا الى ادخال تعديلات أثبتت جدواها على المدى الطويل في عملية تهذيب المنتجات البترولية . وقد جرى تجريب هذا النوع من الوسائط الكيماوية في تحسين صفات البنزين في أحد معامل التكرير الأمريكية وكانت النتائج مرضية . وقد أطلق على هذه الطريقة المستحدثة اسم «التهذيب الريني – Rhenium-Based Catalyst» ومن ميزاتها أنها ساعدت على ادخال تحسينات على وحدات التهذيب أدت بدورها الى زيادة في الطاقة الانتاجية لمعامل التكرير ، كما ساعدت على رفع نسبة الأوكتان في المنتجات البترولية .

ولعل ذلك عائد الى رخص تكاليفه التي تعادل ربع التكاليف المترتبة على استخدام البلاتين ، بالاضافة الى قدرته على تحويل عناصر الزيت الخام الى منتجات مكررة ذات فعالية جيدة .

هذا وان الوسائط الكيماوية الجديدة التي يجرى تطويرها حاليا ، الى جانب استعمالها في تهذيب البنزين ، تشكل أهمية بالغة بالنسبة الى الطلبات المتزايدة على وقود الطائرات النفاثة الذي أصبح اليوم من المنتجات البترولية الرئيسية . ولتلبية مثل هذه الطلبات المتزايدة ، فان شركات الزيت تتطلع الى تطوير وسائط كيماوية جديدة تكون أكثر فعالية واقتصادية من سابقتها . ولربما يكون هذا النوع المرتقب من الوسائط الكيماوية مركبا من مواد تكون متوفرة أو نادرة ، لكن الهدف هو تحويل كل برميل من الزيت الخام الى منتجات عديدة نافعة بطريقة اقتصادية .



رسم توضيحي يمثل برج التقطير الذي يجري فيه فصل منتجات الزيت بعضها عن بعض في معمل التكرير برأس تنورة .

ثمة وسائط كيماوية أخرى بالاضافة الى البلاتين والرينيوم ، تستخدم في عملية تهذيب المنتجات البترولية ، من بينها « أوكسيد المولبدينوم — Molybdenum » الذي تستخدمه شركة الزيت العربية الأمريكية (أرامكو) في وحدة التهذيب الايدروجيني التابعة لمعمل التكرير في رأس تنورة . ويتكون هذا الوسيط الكيماوي الذي يبدو على شكل رمل ناعم جدا ذي لون رمادي ، من جزيئات الألومنيوم المشبعة بنسبة ١٠ في المائة من « أكسيد المولبدينوم » . ومن ميزات هذا الوسيط الكيماوي انه ذو فعالية كبيرة بحيث لا يحتاج الى استبداله دائما ، كما هو الحال في الوسائط الكيماوية الأخرى ، غير ان كميته تأخذ بالتناقص مع مرور الزمن ، الأمر الذي يتطلب اضافة مزيد منه للتعويض عما يفقده .

وتتم عملية التهذيب بهذا الوسيط بدخول النفتا الى المفاعل على حرارة ١٠٠٠ درجة فرنهايت وبضغط ٢٠٠ رطل على البوصة المربعة ، وفي قعر المفاعل تمتزج النفتا بغاز الهيدروجين القادم من وحدة استخلاص المنتجات على حرارة قدرها ١٢٠٠ درجة فرنهايت ، ثم يحدث التفاعل مع الوسيط الكيماوي الذي تبلغ حرارته ٩٢٥ درجة فرنهايت ، ويتبخر أثر ذلك كل من النفتا وغاز الهيدروجين من أعلى برج المفاعل ، ويتحولان الى وحدات التكثيف .

وفي أثناء التفاعل تتكون طبقة من فحم الكوك على جزيئات الوسيط الكيماوي ، وهذه المادة تؤثر بدورها على فعالية الوسيط الكيماوي . وللتخلص منها ، يرسل الوسيط الكيماوي الى برج التجديد الذي يستخدم فيه هواء مضغوط تبلغ حرارته ١١٠٠ درجة فرنهايت ليتم بواسطته حرق تلك المادة المؤثرة والتخلص منها . وبعد عملية الحرق يعاد الوسيط الكيماوي من المجدد الى المفاعل لاستعماله ثانية ، وذلك عن طريق مرور غازات الاحتراق خلال أوعية ستة ، تعرف بأوعية فرز العوامل المساعدة الموجودة في القسم الأعلى من برج التجديد .

ويقوم الوسيط الكيماوي في برج التفاعل باحداث تفاعل كيماوي في اللقيم الممزوج بغاز الهيدروجين لانجاز عملية التهذيب . أما غاز الهيدروجين فمهمته تزويد المفاعل بالحرارة والتقليل من تراكم الكوك على الوسيط . وتبلغ نسبة الأوكتان في البنزين المهذب بواسطة هذه العملية ٩٥ درجة أو أكثر ■

عيسى مسلم

تصوير : عبد اللطيف يوسف ، وسعيد الغامدي





أطلال

للشاعر محمد حمد الصويغ

اليك عني .. عرفت الآن أحلامي ... وثورة الليل في صمتي والهامي

ما كان أجهلني .. والنار تحرقني ... تمحو حنيني وتمحو فيض أنغامي

لا تسألي كيف أغدو غاضبا حنقا ... والحسن عالمه من بعض أوهامي

أو لم تري هذا الخيال يحوطني ... يا ويلتي منه .. ما تخشاه آلامي

* * *

اليك عني .. تخذت الدمع أشعارا ... فلست أرضى بذاك الوهم .. غدارا

فلا تزيلي بهذا الحسن غاضبة ... حسنا غدا كابتسام الورد معطارا

يا ليت شعري .. أعاد الوهم يخدعني ... بظل صرح بناه الغدر تذكارا

ما كاد يقتلني صمتي ولا صخبي ... لكنما الحب للتيار تيارا

* * *

اليك عني .. أخاف القيد أحيانا ... فلا تعيثي بما أشدوه طغيانا

يكفيك أني بتلك النار ظالمتي ... ألقى من البؤس والحرمان ألوانا

ما ضيعتني ظنون الناس .. كنت بها ... أشدو طليقا .. فلست اليوم ظمآنا

لا تهزأي .. انما الأيام دائرة ... وسوف أصحو من الأوهام انسانا

* * *

اليك عني .. فما في البعد أوصابي ... وليس في القرب أفراحي وتطرابي

شكوت لليل آلامي .. وها أنذا ... أشكو من الليل تعذيبي واتعابي

كرهت نفسي .. فلا تغريك ضحكتها ... فكم خدعت بها ظلي .. وأصحابي

أما عرفت فؤادي .. يا لقسوته ... فكيف تبغين بالآلام اغضابي

سيكولوجية اللامبالاة

بقلم الدكتور عبد الرحمن عدس

تسود الأفراد ، بل والجماعات في بعض الأحيان ، وتحت ظروف معينة ، روح يدعوها البعض باللامبالاة ، بينما يدعوها آخرون بالسلبية . وتحت تأثير هذه الروح ترى الفرد يقف من حوادث مجتمعه ومن الأمور التي تدور في فلك حياته موقف المتفرج أحيانا ، وموقف غير المكترث أو اللامبالي أحيانا أخرى . وقد تصل اللامبالاة أو السلبية في بعض الأفراد الى حد الانعزال التام من المجتمع وما يدور فيه . ان الفرد في هذه الحالة يرى الخطأ من حوله فلا يحاول اصلاحه ، ويرى الفساد يفتت عود مجتمعه فلا يحاول تقويمه ، ويرى الحق مستضعفا فلا يحرك ساكنا لنصرته أو حمايته . انه بدلا من أن يحاول تعديل الظروف اذا انحرفت ، وتقويمها اذا اعوجت ، تراه يستسلم لها ، أو يقف مشدوها حائرا أمامها ، وكأنه في معزل عنها وعن تأثيرها . انه بدلا من أن يبادر الى حل مشاكله وبناء حياته على أسس سليمة ، تراه يترك كل ذلك لحكمة الآخرين وحسن تقديرهم ، أو حتى للظروف لتقول الكلمة النهائية بشأنها .

ولا يخفى ان هذه الروح اذا كتب لها أن تسيطر على حياة الأفراد أو الجماعات في أي مجتمع كان ، فانها ستعمل بكل تأكيد على وقف مظاهر نموه وتطوره ، وستساعد على تفككه وانحلاله . نحن لا ننكر ان الفرد قد يضطر تحت وطأة أسباب أو ظروف قاهرة أن يتراجع من معركة الحياة بعض الشيء محاولا استجماع قواه ، وتنظيم نفسه ، والتزود بما تحتاجه هذه المعركة من زاد ، ولكننا في الوقت نفسه لا نقر أي واحد على الانسحاب التام من هذه المعركة مهما كانت الأسباب والظروف ، لأن في ذلك دليلاً قاطعاً على الانهزام ، وبالتالي على التقلص والاندثار . فعلى المواطن أن يعرف بالضبط حقوقه وواجباته نحو نفسه ومجتمعه ، بحيث تقوده هذه المعرفة الى المساهمة البناءة في تشييد صرح هذا المجتمع والاعلاء من شأنه . فالمواطن الصالح ليس الذي يعيش بمعزل عن مجتمعه ، وانما الذي يشعر بأنه جزء هام من هذا المجتمع ، وان عليه أن يشارك في وضع كل لبنة في بنيانه ، وفي كل خطة توضع لأحكام هذا البنيان .

أعراض اللامبالاة

تظهر اللامبالاة في المجتمع وتتمثل في حياة الأفراد بكيفيات مختلفة ، وان كان لكل هذه الكيفيات طابع مميز ، وهو عدم مشاركة الفرد في الحياة من حوله . ومع ان حصر هذه الكيفيات أمر صعب وقد يطول ، الا انه من الضروري أن نتعرف إلى البعض البارز منها .

فهناك الأفراد الذين لا يشعرون بالانتماء الى المجتمع الذي يعيشون فيه ، ويتصرفون وكأنه لا تربطهم صلة بأي فرد من أفراده ، وهؤلاء لا يفكرون في عمل أي شيء من شأنه خدمة مصالح مجتمعهم ، ولذلك تراهم يتميزون بايثار المصلحة الخاصة على المصلحة العامة . وهناك الذين لا يحاولون الاسهام في التخطيط لأوجه الحياة التي يعيشونها ، فهم يبخلون برأيهم ويضنون بجهدهم ويتقاعسون عن العمل ، تاركين لغيرهم تحمل كل هذه المسئولية . ثم هناك الذين يرون الاعوجاج في مجتمعهم فلا يهبون لتقويمه ، ويرون الفساد ينتشر فلا يحاولون منعه وايقافه . وهناك أيضا الذين يؤثرون العمل الانفرادي على العمل الجماعي . ، وكذلك الذين لا تطيب لهم المغامرة حتى في الأمور البسيطة ، والاتكاليون الذين يتركون للغير أن يعملوا ويفكروا لهم بالنيابة عنهم . كما ان هناك الأفراد الذين تعترضهم المشاكل وتعكر صفوهم ، ومع كل ذلك يقفون منها موقف المتفرج ويتركون للزمن أو للظروف أمر حلها والتغلب عليها ... الى غير ذلك من أنماط متعددة من الناس .

ان هذه الأعراض اذا وجدت في أي مجتمع كان ، تسببت في افساد مظاهر الحياة فيه . ولذلك كان حري بنا أن نتساءل عن العوامل التي قد تولد مثل هذه الروح وتعمل على تقويتها وتغلغلها في حياة الأفراد . ومع ان مثل هذه العوامل قد تكون كثيرة ومتنوعة ، فقد رأيت أن أقصر حديثي على العوامل التي يمكن أن تنشأ في البيت أو المدرسة والتي من شأنها أن تؤدي بطريق مباشر أو غير مباشر الى خلق هذا المرض الاجتماعي وتفشيه .

التربية البيتية وروح اللامبالاة

لا يخفى ما للبيئة البيتية من أثر فعال في تنشئة الأطفال والمساهمة في بناء شخصياتهم . فالطفل منذ ولادته وحتى موعد التحاقه بالمدرسة يتلقى خبراته في الحياة ، ويكتسب مفاهيمه عنها من خلال احتكاكه في البيئة البيتية . ولما كانت خبرات هذه الفترة الأولى من الحياة حاسمة في تكوين الشخصية وبنائها ، كان لا بد من مساعدة الطفل على اجتيازها بشكل حسن . ومع ان الكثير من الآباء يحرصون كل الحرص على تنشئة أبنائهم التنشئة الصحيحة ، الا أن الأسلوب الذي يتبعه الوالدان في الوصول الى هذا الهدف قد يؤدي الى نتيجة عكسية .

فهناك مثلا فئة من الآباء يشتد بهم الحرص على سلامة أبنائهم فيعمدون الى تحذيرهم من القيام بأي عمل حتى لا ينتج عن ذلك ما يضر بهم أو يؤذيهم . وازاء ذلك ترى هؤلاء الآباء يسارعون الى القيام بكل ما يجب أن يقوم به الأبناء أنفسهم . ولا يخفى أن مثل هذا الأسلوب من التنشئة يولد عند الأبناء روح التردد والاتكال ، ويسلبهم روح الاستقلال في الرأي والعمل .

وهناك على عكس من ذلك فئة من الآباء شديدة التساهل في تنشئة أبنائها ، فهي لا تقف

في طريقهم بالمرة ، وتترك لهم حرية التصرف دون تدخل أو ارشاد . ولذلك ترى الطفل يترك وشأنه ، يتصرف كما يحلو له . ان هذه الحرية الزائدة وغير الموجهة مفسدة للطفل ، حيث انها لا تولد عنده المعايير الصحيحة للسلوك المقبول وغير المقبول ، وبالتالي فهي تولد له المشاكل الاجتماعية ، خصوصا عندما يبدأ بالتعامل مع الآخرين . ولا يخفى ان هذه التنشئة لا تمكن الطفل من التعرف على حدوده وحدود غيره ، وبذلك تجعله غير واثق من صلاحية قوله وعمله ، الأمر الذي يشجعه على العزلة والابتعاد .

وهناك فئة ثالثة من الآباء يحلو لها معاقبة الأبناء وتقييد حريتهم وفرض سيطرتهم عليهم ، فترى الأب يعاقب ابنه لأتفه الأسباب ، ويتشدد في معاملته دون مبرر ، ويحاسبه على كل صغيرة وكبيرة ، ويلومه على كل عمل يصدر عنه حتى ولو كان هذا العمل مقبولا ولا غبار عليه . وازاء هذا السلوك الأبوي غير المحبذ ينشأ الطفل خنوعا مطواعا يعتقد ان من واجبه اطاعة السلطة والامتثال لأوامرها ونواهيها ، وانه لا يصح له انتقادها حتى ولو كانت خاطئة . ولا يخفى أن مثل هـــذه التنشئة تنمي في الطفل روح السلبية قولا وعملا .

وهناك فئة رابعة من الآباء لا تطيق أن يوجه لها الأبناء أسئلة واستفسارات حول الأمور التي تشغل بالهم وتدور في فلك حياتهم ، فهم يتهربون من الاجابة أو يمتنعون عنها بطريقة رادعة . انهم بذلك لا يتيحون الفرصة لهؤلاء الأبناء للتدرب على طريقة المناقشة الهادفة والبناءة للأمور المتعلقة بحياتهم . ولا يخفى ان هذا النقص في التنشئة يتولد عنه عدم قدرة الطفل على مناقشة الأمور والقضايا من حوله ، وبالتالي تراه يندفع الى ظلال السلبية والانعزال .

كما ان هناك فئة خامسة من الآباء لا تنتهج نهجا ثابتا معينا في تربية أبنائها وتنشئتهم ، بل على العكس من ذلك ، فان طريقة معاملتها لهؤلاء الأبناء غالبا ما تتصف بالتقلب والتغير وعدم الثبات . فبينما تراهم تارة يتساهلون مع الآبناء ويمنحونهم كل ما يطلبونه دون حساب ، تراهم تارة أخرى يضنون عليهم بكل شيء دونما سبب يذكر . انهم يأخذون أولادهم بالقسوة والعقاب اذا هم ارتكبوا خطأ معينا ، ولكنهم في أوقات أخرى يتغاضون عنهم اذا وقع هؤلاء الأبناء ثانية في الخطأ السابق نفسه . وازاء هذا التقلب والتردد في المعاملة ينشأ الطفل حائرا في علاقاته مع الآخرين ، وغير عارف تماما لما يجب عمله وما لا يجب . وبعبارة أخرى فان الطفل في هذه الحالة ينشأ غير مدرك تماما لنوع السلوك الذي يتقبله الآخرون منه والسلوك الذي لا يتقبلوه . ونتيجة لهذه التنشئة تتولد عند الطفل روح التردد والتقلب ، وتضعف عنده الرغبة في المساهمة بالأعمال التي لها صلة بغيره ، ويقوى عنده الشعور بالعزلة والانفراد ، وهي جميعها ، كما لا يخفى ، من أعراض السلبية واللامبالاة .

وأخيرا هناك فئة من الآباء تتصف في معاملتها لأبنائها بالتحيز وعدم المساواة ، فهي اما أن تفضل بعضهم على بعض ، أو تغدق الامتيازات على بعضهم وتمنعها عن البعض الآخر . وبالطبع فان هذه المعاملة غير العادلة تولد عند الطفل روح العداء ، وتجعله أنانيا يفكر بمصالحه الخاصة دون المصلحة العامة ، وتسلبه الرغبة في العمل ضمن اطار الجماعة ، وتغرس فيه روح السلبية بمختلف أشكالها وصورها .

المدرسة وروح اللامبالاة

والمكان الآخر الذي يقضي فيه الطفل جزءا كبيرا من حياته الأولى ، والذي يلعب دورا مهما في صقل شخصيته واكسابها طابعها المميز هو المدرسة . غير أن هذا المكان حتى يتاح له القيام بدوره كاملا ازاء اعداد شخصية الطفل اعدادا سليما وبنائها بناء ايجابيا ، ينبغي أن تتوافر فيه نخبة خيّرة من المربين الأكفاء ذوي الصفات القيادية والسمات الخلقية ، والمؤهلين تأهيلا أكاديميا حقيقيا لمهنة التربية والتعليم .. كما يجب أن تتيسر له المناهج الدراسية الحية والظروف المدرسية البناءة ..

فالمعلم الكفوء ، انما هو من يسعى دائما الى الابتعاد عن التسلط والسيطرة في كل ما يربطه بالطلاب ، ويكترث بما يصدر عنهم من قول أو عمل مهما كان نوعه وطبيعته ، ويعمل مخلصا على توجيههم توجيها بناءا ، بدون تحيز في طريقة معاملته لهم ، ويضع نصب عينيه دائما بناء الشخصية الايجابية عند الناشئة وتوطيد أركانها .

أما من حيث المناهج التعليمية ، فيجب أن تكون متفقة مع روح العصر ، وأن تكون من النوع الذي يتميز بقوة الصلة بحياة الطالب العامة .. فالمناهج الدراسية اذا ما أريد لها أن تلعب دورا ايجابيا في صقل شخصية الطفل ، وأن تؤدي رسالتها الصحيحة ، وأن تساعد الطفل في تصريف أمور حياته ، وتجعل منه عضوا فعالا يسهم في بناء المجتمع من حوله وتطويره ، فانه من الضروري أن تعمل على موافاة هذا الطفل بالمعلومات التي ترتبط ارتباطا وثيقا ببيئته ومجتمعه حتى يتسنى له الوقوف عليها والتعرف بها واتخاذ الأحكام الصائبة بشأنها عندما تدعو الحاجة لذلك .

وأخيرا فان الظروف المدرسية العامة ، بما في ذلك النشاطات المختلفة ، قد تعمل على تطوير شخصية الطفل وجعله ايجابيا مقبلا بدلا من كونه سلبيا مبتعدا . فالمدارس ، مثلا، بعملها على اقامة الأندية لطلابها تمهد الطريق أمام تنمية هواياتهم وصقل اهتماماتهم وتعويدهم الحياة الجماعية ذات الهدف المشترك . ان المدرسة تستطيع أن تعمل كل ما من شأنه جذب الطلاب وجعلهم يشعرون بالانتماء اليها خارج ساعات الدراسة ، حتى وأثناء هذه الساعات .

لا شك ان كثيرا من المدارس تقوم بأنشطة رياضية وثقافية وترفيهية ، ولكن الاشراف على هذه النشاطات والتخطيط لها قد ينحصر في أيدي ادارة المدرسة ومعلميها بالاشتراك مع نفر بسيط من الطلاب تختارهم ادارة المدرسة لذلك الغرض . وازاء ذلك فان اقبال بقية الطلبة على مثل هذه النشاطات قليل نسبيا ، واذا ما أريد لهذه النشاطات أن تعود بالفائدة المرجوة منها وجب أن يشترك كل الطلاب ، بطريق مباشر أو عن طريق ممثليهم ، في التخطيط لها ، بحيث ينبثق عن ذلك أهداف عامة يلتزم الجميع بالعمل على تحقيقها ، ويشعر كل فرد منهم بالانتماء اليها .

وبالاضافة الى ذلك تحسن ادارة المدرسة صنعا ان هي أفسحت المجال للطلبة أو ممثليهم ليشاركوا في رسم الخطط الخاصة ببعض أوجه حياتهم داخل المدرسة . وتحسن المدرسة فعلا ان هي علمت طلابها طريقة النقد البناء وسمحت لهم ممارسته وعودتهم على الأصول الصحيحة لمثل هذا النوع من النقد . فاذا أحسن توجيههم في هذا المضمار أثناء وجودهم في المدرسة ، أمكن انتقال هذه الروح البناءة الى الحياة خارجها ، وأصبح من السهل عليهم النهوض بمجتمعهم وتطوير الحياة فيه .

وبعد ، فاذا نحن ضمنا تربية بيتية سليمة ، وجوا مدرسيا بناء ، كان في ذلك خطوة ايجابية نحو خلق جيل متماسك ، له هدف واحد وقلب واحد ■

من وحي التاريخ الإسلامي

معركة الأرك

بقلم الاستاذ عبد الله حشيمة

— لست مرتاحا الى ما يجري في الأندلس ، يا أبا يحيى .. الملك « الفنس » يغزوها عائثا في بسائطها ، منيخا على قواعدها الواحدة بعد الأخرى ، ويتحداني .

قالها الخليفة المغربي يعقوب المنصور لكبير أمنائه ، والغضب مطل من عينيه ، فقال أبو يحيى مهتما :

— كيف يتحداك ، يا أمير المؤمنين ؟

قال الخليفة :

— خذ اقرأ هذا الكتاب .

ودفع اليه كتابا قرأ فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم . من « ألفنس » ملك قشتالة ، الى الخليفة يعقوب المنصور ، وبعد . ان كنت عجزت عن الحركة ، وتثاقلت عن الوصول الينا ، فوجه اليّ المراكب والقوافي أجوز فيها بجنودي اليك ، لأقاتلك في أعز البلاد عليك ، فان هزمتني فهدية جاءت الى يدك وكنت ملك البلدين ، وان هزمتك تخليت لي عن عرشك ، والسلام .

قرأ أبو يحيى هذا واجما ، وقد وجد فيه أنكأ أنواع التحدي ، فقال الخليفة :

— ما قولك في ما قرأت ؟

قال أبو يحيي :

— لأمير المؤمنين القول .

قال الخليفة :

— أكتب لألفنس على ظهر كتابه عينه : « أرجع اليهم .. فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون » .

° ° °

أمر الخليفة بالتعبئة العامة ، وتناقل أهل بلاطه خبر كتاب ألفنس له ، ورده على كتاب الفنس ، فقال أبو عبد الله ، أحد كبار معاونيه وقواده ، لأبي يحيي :

— سيقاتل الخليفة اذن ألفنس .

قال أبو يحيى :

— وما ترى في ذلك ؟

— كان عليه أن لا ينتظر تحدي ملك الأسبان ليعبر البحر اليه .. لنا في الأندلس ملك بالمهج الغوالي بنيناه ، لا لعبث من أراد العبث له ، ولا ليقفز من فوقه عدو لقتالنا في عقر دارنا .

— ما أراد الخليفة أن يكون البادىء بالعدوان ، وأنت تعلم ميله الى تسوية الأمور بالحسنى ، ولذا أبى أن يقاتل ألفنس قبل أن يرى منه ما يحمله على قتاله .

— أرجو أن لا يتراجع الآن .

قال أبو يحيى :

— أن لا يتراجع .. أنت تقول هذا ، يا أبا عبد الله ؟

قال أبو عبد الله ضاحكا :

— لم تفهم قولي . لقد تعوّد أعداؤنا أن يستغلوا تسامحنا ، كلما وجدوا أنفسهم ضعفاء أمامنا ، فاذا بدا جانب ضعف منا تجبروا . أما تخشى مثلي أن يتسامح الخليفة ، اذا وجد الفنس نفسه عاجزا عن منازلتنا ، وطلب التسامح ؟

— يكون الخليفة غير عربي ، ان لم يلب طلبه .

— لماذا ؟

— لأن منازلة الضعيف العاجز نكر ، فضلا عن كونها لا تكسب القوي شرفا ، والعربي الأصيل من ينهاه اباؤه وكرمه عنها .

° ° °

قال أبو عبد الله : « في الأندلس ملك بالمهج الغوالي بنيناه » وصدق بقوله .

فأي ملك بنى العرب هناك .. جنة جعلوا من أرضهم ، ومنارا رفعوا من ثقافتهم ، وبعبقريتهم مهدوا لحضارة أخذها الغرب عنهم ، وعبثا حاول المحاولون انكارها عليهم وأقلام القيّمين الأمناء على التاريخ ، الى جانب ما تركوا من آثار هناك ، تشهد .

وغاليا كلفهم ذلك ،

ثمانية قرون من نضال ، والنضال يتطلب تضحيات ، والتضحيات الأرواح التي استشهدت في حومات الوغى بعضها .

° ° °

وقرطبة كانت احدى جواهر العقد الأندلسي ، لا بل جوهرته الأولى ، والحرب التي أعلنها الملك الأسباني ألفنس تهددها ، وبنوها يتأهبون لمنازلته ، فيما لو تمكن من أجتياز العقبات التي تحول دون وصوله اليها .

وقائد فرسانها كان العباس ، نفخ في بوق الجهاد ، فاذا فرسانه حوله ، وكلهم حماسة وغيرة ، بانتظار الجولة .

وابنته فاطمة الى جانبه ، تتأهب بدورها لأداء الواجب ، وتسأل الله بحرارة أن ينقذ مدينتها . ورآها على شيء من الاضطراب ، فقال لها :

— على رسلك ، يا بنية .. أتتشاءمين وأنت ابنة قائد ، وسليلة قواد تعودوا خوض غمرات الوغى ، والعود منتصرين منها ؟

قالت : ما تعودت التشاؤم ، ولا أنا بمتشائمة ، ولكن ..

— ولكن ماذا ؟

— أما ترى جيوش ألفنس زاحفة علينا ، وحيثما حلت حل بأبناء قومنا الذّل ؟

قال متحمسا :

— لن تصل جيوش ألفنس الينا ، ولن تدخل مدينتنا الغالية قرطبة ، وفي مدينتنا هذه رجل يحمل السيف .

قالت متحمسة بدورها :

— وفيها امرأة تعرف كيف تقاتل بالأسنان والأظافر ، ان يكن القتال بالسيف فوق قدرتها .

قال ضاحكا :

— لن تحتاج المرأة القرطبية الى خوض غمار الوغى يا ابنة العباس ، وسترين جيوش ألفنس تتلاشى كالهباء تحت وطأة جيوشنا الجرارة .

قالت دهشة :

— « جيوشنا الجرارة » .. يقولها العباس والدي وكأنه مطمئن الى واقع .

— لقد اجتاز الخليفة المنصور البحر ، بقوات لا عداد لها ، وهو في طريقه الينا .

قالت مستبشرة :

— الخليفة المنصور ، حياه الله ... وكيف عرفت بقدومه ؟

قال : لقد بعث يدعو أمراء الأندلس للانضمام اليه ، والجيوش الأندلسية تتحرك في كل مكان تلبية لدعوته ، ولخوض معركة فاصلة لا يبقى بعدها أمام ألفنس الا احترام حقنا ، ومراعاة حرمة الجوار .

— وهنا يكون التجمع ؟

— كان الخليفة يرمي في زحفه الى ما وراء طليطلة عاصمة القشتاليين ، واذ علم ان ألفنس حشد جيوشه بين مدينتنا وقلعة رباح غير خطته ، وتوجه الى هنا لمنازلته ، وسيكون بعد يومين بيننا .

— نصر الله جيوشنا .. انني أخشى أن يكون الثمن باهظا .

قال : على قدر الثمن يكون المجد .. وما تعود العربي ، اذ يدعى الى اضافة مجد الى مجده ، أن يبالي بالبذل كثر أم قل .

° ° °

في غليان غدت قرطبة ... كل من فيها يريد القتال ، يريد الاسهام في احراز النصر وجماهيرها تتظاهر هاتفة :

— الى الحرب .

— الى انتزاع النصر والمجد .

— قرطبة في الطليعة .

والعباس يخاطب الجماهير قائلا :

— يا أبناء قرطبة ، يا بناة مجد الأندلس وحماته . ألفنس القشتالي على أبواب مدينتكم ، فمن منكم لا يحمل السيف ؟

والجماهير ترد عاليا :

— لا أحد .

— كلنا سيوف مسلولة .

— لن يبقى غير النساء في البيوت .

ويدوي صوت فاطمة :

— ما أنصفت ، يا هذا .. المرأة القرطبية ، ستراها الى جانبك في المعركة ، لتضمد جراحك وتواسيك ، ان لم تكن لها قوة ساعدك للضرب بالسيف .

وتتعالى الأصوات ، أصوات الجماهير التي بلغت حماستها الذروة ، صائحة :

— لقرطبة الفخر ببناتها .

— لا تقتحم عرينة دونها أسود ولبوءات .

° ° °

قطع الخليفة المنصور البحر ، وتدفقت جيوشه الجرارة على البر الأندلسي ، وبين قرطبة وقلعة رباح تجمعت ، بانتظار الساعة التي ستلتقي فيها جيوش ألفنس .

وجيوش ألفنس تزحف وتتجمع بدورها .. وسأل الخليفة عن عددها ، فقيل له :

— لا يعرف بالتدقيق ، وفي زعم البعض أنه لا يقل عن الثلاثمائة ألف .

قال ضاحكا :

— في هذا مبالغة ، ومع ذلك فلا بأس ، وعدد جيوشنا لا يقل ، في أي حال ، عن عددها .

وقال لأبي يحيى :

— هل تم تجمع الجيوش الأندلسية التي لبى أمراؤها وقوادها دعوتنا ؟

قال أبو يحيى :

— أجل يا أمير المؤمنين .

— وبأي روح تجمعت هذه الجيوش ؟

— بالروح الاسلامية العالية التي تعودت التجمع بها في أوقات الشدة .

— وفرسان قرطبة ؟

قال أبو يحيى معجبا :

— لله درهم .. يزحفون وقائدهم في الطليعة ثقالا ، فاذا أطلقوا لجيادهم الأعنة ، جرت تحتهم خفافا الى النقع ، وهم على صهواتها كالنسور اذ تنقض ، وأجنحتها تصفق للظفر بالفريسة .

قال الخليفة ضاحكا :

— أرى أن لقرطبة وفرسانها مكانة خاصة عندك ، يا أبا يحيى .

قال أبو يحيى :

— لدرة الأندلس الحق بأن تكون لها مكانتها عند كل عربي .

— ومن قائد فرسانها ؟

— العباس بن زيد ، صاحب السيف الذي لا ينبو ، والساعد التي لا تكل ، في ميادين الطعن والضرب .

— وعدد فرسانه ؟

— نسأله ، فيجيب : ليس لفرساني عدد ، وسيكونون في الميدان أنى قضى الواجب أن يكونوا . وحيثما انقضوا كانوا كالصواعق تنقض ولا ترقد .

قال الخليفة مرتاحا :

— سأرى العباس بن زيد .

قال أبو يحيى :

— وابنته ، يا أمير المؤمنين .

قال الخليفة دهشا :

— وابنته ... ما شأن ابنته ؟

قال أبو يحيى :

— أبت المرأة القرطبية الا أن يكون لها شأنها في المعركة التي ستنشب ، فاذا هي الى جانب الرجل لخوض هذه المعركة ، وستخوضها تحت رايتك لا تبالي بالموت اسهاما في انتزاع النصر .

— وتحارب بنت العباس ؟

— تؤدي ورفيقات لها واجبا ، هو في نظرها وفي الواقع يوازي واجب الطعن والضرب .

— أفهم .. تلتقط الجرحى من الميدان وتسعفهم مواسية .. واسم بنت العباس ؟

— فاطمة .

قال الخليفة متأثرا :

— لفاطمة ولراية الخلافة في الجيش حرمة واحدة ، لا تنتزع احداهما منكم وفيكم ساعد يضرب بالسيف .

وسكت لحظة ، ثم قال :

— والآن توزع المسؤوليات على من يتحملها ، وعلى ضوء الخطة المرسومة للقتال ، فما رأيك يا أبا عبد الله ؟

قال أبو عبد الله :

— توحد قيادتنا أولا يا أمير المؤمنين ، ولكم بعد أن تختاروا لها القائد الذي انتم أدرى من سواكم بأهليته .

قال الخليفة :

— أبا يحيى أختار .

— ونعم اختياركم .. وليكن على الأندلسيين القائد الذي يعرف عاداتهم ، ولا يجهل مذاهبهم في ميادين الكر والفر .

— ما لهذا سواك ، يا أبا عبد الله .
— ولن أخيب ظن أمير المؤمنين بي .
— بعد القيادة ؟
— تُقدم الجيوش النظامية لمجابهة العدو ، وتبقى القوات غير النظامية على قدم الأهبة احتياطا ، وينزل أمير المؤمنين بحرسه الأبيض والأسود وراء التلال ، فاذا تنازع الفريقان غار النصر فاجأ العدو بهجوم صاعق يقضي ويجهز عليه .
قال الخليفة موافقا :
— باسم الله نفعل ، وسيرى ألفنس من منا نحن الاثنين سيتنازل للآخر عن عرشه .

• • •

أقلق التجمع العربي ألفنس ، وعاد غير من يتوقع لجيوشه النصر بسهولة ، وتوقف بانتظار المدد الذي كان يرجوه من أنسبائه وحلفائه ، وفي مقدمتهم ملكا « لاون » و « الفاڤار » . قال لكبير قواده :
— ما أخبار نسيبي ملكي « لاون » و « الفاڤار » يا لذريق .. أما ترى أنهما أبطأ في البر بالوعد ؟
قال لذريق :
— آخر أخبارهما أنهما قادمان على رأس جيشين قويين لنجدتنا ، فاذا كان هذا فمما لا شك فيه أنهما سيصلان .
— بعد فوات الأوان .
قالها ألفنس بلهجة من لا أمل له بعد ، وتابع :
— لقد تمكنت الأحقاد منهما ، ولا حيلة في اصلاح ذات بينهما على ما يبدو ، وبات علينا أن نعتمد على أنفسنا في القتال .
قال لذريق :
— على أنفسنا نعتمد ، ولدينا من القوات ما يكفي ، يا مولاي .
— للمنصور أكثر مما لنا منها .
— أتصدق ما أتاك من عدد قواته ؟
— كنت أحسب أن بعض أمراء الأندلس سيتخلون عنه ، سيقضون بيني وبينه محايدين على الأقل ، فاذا الأمر غير ما حسبت .
— قد يختلف العرب فيما بينهم ، على شؤون تعنيهم دون سواهم ، الا أنهم لا يترددون في الوقوف كتلة واحدة ، أمام أي خطر يهددهم من الخارج .
— على كل تحدينا المنصور ، فخف الى قتالنا بكل ما لديه من قوة ، وعزتنا تقضي بأن لا نتردد في منازلته .
— وترون أن نتحصن بقلاعنا ؟
— اذا فعلنا ضرب علينا الحصار ، وحق له الاستخفاف بنا ، ونحن من خيرناه بين المجيء الينا وذهابنا اليه ، واختار المجيء فمن العار اذن أن نختبيء من وجهه .
— ليكن ما ترون .
— نخوض واياه معركة فاصلة .. للسلاح العربي مضاؤه أجل ، ولكنه ليس أمضى من السلاح الأسباني .
— ومكان المعركة ؟
— الأرك .. هناك قلاعنا وحصوننا ، وهناك فرسان قلعة رباح ، وهم وغيرهم من الفرسان في مقدمة من نعتمد عليهم .
— ومتى نبدأ القتال ؟
— ليس من مصلحتنا الابطاء .. وعليه أرى أن نقيم على أهبة ، وأن تكون لنا المبادرة في الهجوم ، وطالما كانت المباغتة خير مساعد على احراز النصر .

• • •

ليس من يجهل فضل العرب على تطوير علم الطب ، ونقل ما نقلوا من مبادئه وأصوله وفروعه ، من عالمهم الشرقي الى عالم الغرب .
والتمريض في جملة فروعه .
وفي معركة الأرك برز هذا الفرع ، فاذا هو من معطيات الانسانية ، بل من أنقى وأسمى معطياتها التي لا تمييز فيها بين انسان وانسان ،



بين عدو وصديق ، عندما يكون القصد منها اعانة المصابين وتخفيف الآلام .

قال العباس لابنته فاطمة ، بينا الاستعداد للقتال قائم على قدم وساق :

— هل أنت ومتطوعاتك على أهبة ؟

قالت فاطمة :

— على أتم الأهبة ، يا أبي .

— وكل شيء متوافر لديكن : الأدوية ، والضمادات ، والمنعشات ، على أنواعها ؟

— كل شيء متوافر لدينا منها .

— وتدريب رفيقاتك على استعمالها ؟

— يسير أحسن سير .

قال العباس مزهوا :

— الآن عرفت يا ابنتي ما كانت غايتك من اتقان فن التمريض ، وأنا فخور برؤيتك تضعين علمك ونفسك في خدمة المصابين من بني قومك ، ولي بعد اليك سؤال .

قالت : اسأل يا أبي .

قال : اذا مررت بجريح من الأعداء في ساحة القتال ، واستغاث هذا الجريح بك ، فهل تلبين نداء استغاثته ؟

قالت فاطمة ضاحكة :

— تسألني ذلك ، وكأنك غير العربي الذي يغيث الضعيف والمصاب والعاجز ، وان كان عدوا .. أترضى أن لا أغيث جريحا ، أيا كان من الناس ، يا أبي ؟

قال : كلا ، يا ابنتي .

فقالت : وليس لي ، وأنا ابنتك ، أن أرضى ما لا ترضاه .

وكان الخليفة يتفقد وحدات مقاتليه ، قبل أن يدفع بهذه الوحدات الى المعركة ، وانتهى الى حيث كان الأب والابنة ، فقال للعباس :

— وفرسان العباس ، أعلى أهبة هم ؟

قال العباس :

— فرسان قرطبة على أهبة لانتزاع النصر .. لعز الخلافة ، وحفاظا على التراث الغالي الذي ائتمنوا عليه .

قال الخليفة مرتاحا :

— ونعم التراث .. وابنتك يا ابن زيد ، أعلى استعداد هي ؟

— بين يديك ابنتي ، فاسألها .

— فاطمة ! .. أهذه ابنتك فاطمة ؟

قالت فاطمة بجرأة :

— أنا هي ، يا أمير المؤمنين .. وقد لا أكون في مستوى يؤهلني للقيام بواجبي ، ومع ذلك فاني على أتم الاستعداد لأداء هذا الواجب .

— وتحسنين أنت فن اسعاف الجرحى وتخفيف آلامهم ؟

— بقدر ما تلقيت من أصول هذا الفن .

— وعلى من تلقيت أصوله ؟

— على النخبة من أساطين علم الطب ، وهم كثر في قرطبة .

— ولهم شهرتهم . وبعد يا فاطمة ، أما ترين في خوض غمرات القتال ، وان يكن لاسعاف المصابين ، خطرا عليك ؟

— لست خيرا منك ومن والدي يا أمير المؤمنين لأخشى الأخطار .

ع. قباني

— وإذا تعرضت لخطر ، كأن يتجاهل أحد الأعداء مهمتك الانسانية ، ويشهر سلاحه عليك ، أما تدافعين عن نفسك ؟

— والدي يعلم أنني أحسن الدفاع عن النفس .

— واذا رأيت خطرا يهدد والدك ، أو يهددني أنا الخليفة مثلا ، وكنت في وضع يساعدك على دفع هذا الخطر ، فهل تفعلين ؟

— أدفع الخطر اذا استطعت ، لا عن الخليفة ووالدي فحسب ، بل عن آخر جندي من جنودنا ، ولو بذلت في سبيله حياتي .

— بورك فيك ، يا فاطمة .

قالها الخليفة مرتاحا الى الروح العالية التي أوحت بها لفتاة تأبى الا أن تجاري الرجال في أداء الواجب ، والتفت بعدها الى العباس المزهو بابنته ، وقال له :

— ان من كانت له ابنة كابنتك يا ابن زيد من حقه أن يفاخر بها ويزهو .

وتابع قائلا للحاضرين :

— ان المعركة بيننا وبين ألفنس ستنشب الليلة أو غدا ، ومن كان ايمانه بالله ، وبصدق الدعوة التي من أجلها نجاهد ، لا يخذله الله .

• • •

من معارك الأندلس الكبرى كانت معركة الأرك .. في تموز ١١٦٥ وقعت بين العرب المسلمين والاسبان ، وخاضتها جيوش من الفريقين جرارة ، وللجيوش الاسلامية كتب فيها النصر .

قال أبو يحيى ، وقد ولّي القيادة العامة ، منظما قواته استعدادا لتلك المعركة :

— الموحدون النظاميون في القلب ، والأندلسيون في الميمنة ، والقبائل في الميسرة ، والخليفة بحرسه وراء التلال .

وتوجه الى من حواليه من أركان حربه وقواده بقوله :

— دنت الساعة .. قبل أن يهاجمنا الأسبان نهاجمهم . تتقدم المتطوعة من التل الذي عليه ألفنس ، وتمهد للقتال بنبالهم يساندها القلب والجناح الأيسر ، ولا يتحرك الجناح الأيمن الا متى تلقى الأمر بالتحرك ، وللخليفة وحرسه المختار شرف اطلاق الضربة الأخيرة القاضية .

وبلهجة القائد الآمر :

— أيها القواد .. كل منكم في مكانه ، وانتظروا اشارة التحرك ، وعلى حسن قيادتكم ، وتقديركم المسؤولية الملقاة عليكم ، يتوقف النصر .

• • •

أعلنت الأبواق والطبول بدء المعركة ، وتعالى هتاف العرب مدويا :

— الله أكبر .

وتدافعت جحافلهم بحسب الخطة المرسومة ، وكل من أفرادها يشعر بعظم المسؤولية الملقاة على عاتقه ، بعد أن قال قواده : الموت ، أو النصر .

والى المعركة اندفعت فاطمة ، على رأس رفيقاتها المتطوعات ، بعد أن قالت لهن :

— لنكن على أهبة .. كل صرخة ألم تتصاعد من الميدان نداء نلبيه ، لا خوف يثنينا عن الاقدام ولا التضحية .

وبصوت ملؤه العزم والايمان :

— الى الأمام يا بنات قرطبة .. اليوم يومكن لأداء واجب أقل ما يتوقف عليه انقاذ المئات والألوف من آبائكن وأخوتكن المجاهدين في سبيل الله .

• • •

المعركة في أشدها ، والخليفة يرافق سيرها عن كثب :

الجيوش من الجانبين تتدافع وتتلاحم ، والقشتاليون يتراجعون ، أمام كرات الفرسان المسلمين العرب الشوس .

وتزداد المعركة احتداما :

يعيد القشتاليون الكرة ، فيتداعى الجناح العربي الأيسر ، ويتوغلون فيه .

ويساور الخليفة القلق :

القلب العربي يتصدع .. يحاول القشتاليون شطره نصفين ، والجثث من الجانبين تتراكم .

ويصل أحد الضباط العرب لاهثا ، ويقول للخليفة :

— القائد العام ، يا أمير المؤمنين .

وبلهفة يقول للخليفة :

— أبو يحيى .. ما دهاه ؟

قال الضابط :

— سقط في ساحة الشرف .

قال الخليفة منتفضا :

— رحمة الله عليه .. ليتولى أبو عبد الله القيادة .

• • •

المعركة في ذروتها ، وفاطمة تخوض ورفيقاتها غمارها ، ملبية نداء الواجب ، وتصيح من خلال ذلك بالمحاربين :

— يا أبطال الاسلام .. الأرض التي ارتوت من دمكم لا يجتاحها العدو .. اطردوه منها ، أو نبقى نحن بناتكم فيها ، ليأخذنا جنود ألفنس سبايا .

• • •

أبو عبد الله ، وقد تولى القيادة العامة ، يصيح بجنوده :

— الجناح الأيمن .. الى قلب المعركة ، الى ساحة المجد ، الى النصر .

ويندفع الجناح الأيمن هاتفا :

— الله أكبر .

والخليفة ينظر .. ويتعالى هتافه ، بين أركان حربه ، مستبشرا :

— جناحنا الأيمن يخترق قلب القشتاليين .. النصر يراوح بين الجانبين .. لك الكلمة الفصل ، يا حرس الخلافة .

ويندفع الحرس ...

• • •

انتهت المعركة بانتصار الجيوش الاسلامية ، بعد أن مزقت هذه الجيوش جحافل القشتاليين شر ممزق ، ودوت هتافات المنتصرين :

— الله أكبر .

خذل العدو ، وتم لنا النصر .

قال الخليفة :

— وحصن الأرك ؟

قيل : سقط .

قال : وقلعة رباح ؟

— استسلمت .

— والملك ألفنس ؟

— لاذ بالهرب .

قال ضاحكا :

— ما أردنا له ذلك .. لقد قاتل ببطولة ، ونحن نقدر الأبطال ، ولو وجدت سبيلا اليه لصافحته .

قال أبو عبدالله :

— سيبعث غدا من يسألك الهدنة .

قال الخليفة :

— اذا فعل هادنته .

— وينسى أمير المؤمنين قوله في كتابه ؟

— وما قوله ؟

— اذا هزمتني كنت ملك البلدين .

قال الخليفة :

— أكلّ ما يكتب على الورق جدّ ، يا أبا عبد الله ؟

قال أبو عبد الله :

— وما الجد ، يا أمير المؤمنين ؟

قال الخليفة رصينا :

— الجد ما رأيت وترى ، يا أبا عبد الله .. نقاتل اذ ندعى للقتال ، ونسامح اذ يسأل عدونا السماح ، ونحن في الحالين مسلمون عرب ■

أزمة البيئة الطبيعية

بقلم الدكتور فؤاد صروف

توالى في العقد الأخير من هذا القرن صدور مئات من الكتب والدراسات والتقارير الرسمية ، متضمنة وصف العوامل الحضارية المنذرة بتردّي البيئة الطبيعية للأرض . وقد كان العلماء الذين كتبوها ، من أقطاب الطب والصحة العامة ، وعلوم الحياة والحيوان والنبات والزراعة ، وأحوال الغلافين الهوائي والمائي ، ولكن قلّ من ألقى اليها بالا من الناس ، بل كان هناك من نقد بعضها نقدا لاذعا .

ترى ماذا طرأ من جديد ، في الفترة الأخيرة من الزمن ، حتى تتنادى المنظمات الدولية للاهتمام بهذه القضية ، فتعقد لها المؤتمرات الاقليمية والعالمية ، وتصدر التوصيات وتسنّ القوانين .

يغلب على الظنّ ، أن المخاوف الناجمة عن تجارب التفجيرات النووية ، وما كتب عن تأثيرها في أجسام الأحياء وبيئتها الطبيعية تأثيرا يورثها السقم ، وقد يفسد جبلتها المنجبة ، أستأثر بالاهتمام أولا . فلما عقدت المعاهدتان الخاصتان بحظر تجارب التفجيرات النووية في الهواء ، وتقييد انتشار أساليبها العلمية والصناعية لغير الأغراض السلمية ، تنفس الناس الصعداء شيئا ما . ومن ثم تذكروا ما يقال عن الضباب الصناعي الخانق في مدن عظيمة ، أو قرأوا ما حصل في أحد الأنهار ، حيث هلكت ملايين من الأسماك بتأثير ما في مياه النهر من قاذورات وفضلات ومواد كيمائية سامة ، أو ما انتهت اليه حالة احدى البحيرات من اختناق الحياة فيها ، وألقوا بالهم الى مشكلات التفجر السكاني وأثره ، وازدياد الفضلات الصناعية المطروحة ، فبدأوا يتنبهون لأقوال العلماء وما ينذرون به ، فاقترنت في أذهانهم هذه الشراكة بين الانهمال النووي وتردي البيئة الطبيعية بتأثير أوضاع الحضارة الصناعية ، تأثيرا متفاقما ، في هواء الغلاف ومائه ، وتربته وأحيائه ، حتى اذا ما استفحل واستشرى ، غدت الأرض ، وهي مثوى الانسان في الكون ، عاجزة عن توفير جميع مقومات الحياة عليها على الوجه الأكمل . فلأول مرة في التاريخ ، أصبح كل انسان ، بل كل جسم حيّ عرضة للتأثر بمواد كيمائية خطرة ، منذ التخلّق في رحم الأم حتى الرمس . ففي خلال عقدين أو ثلاثة عقود من السنين ، بلغت هذه المواد من الانتشار مبلغا عظيما في العالم الحيّ ، وغير الحيّ ، حتى لتكاد تجد مقادير متفاوتة منها في كل مكان : في الأنهر العظيمة والجداول والمياه الجوفية ، وفي التربة التي تستعمل فيها أو تتسرب اليها خلال سنوات . وقد دخلت أجسام السمك والطير والزواحف ، والحيوانات الأنيسة والبرية على السواء . ويقول العلماء الذين يتوفرون على هذا الضرب من الدراسات والتجارب ، انه يندر أن يجدوا حيوانا لم تتسرب الى جسمه احدى هذه المواد : السمك في البحيرات الجبلية العالية ، والخراطين « دود الأرض » في جوف الثرى ، وبيض الطير ، ولبن الأم المرضع ، وبما أنسجة الجنين .

وكل هذا مرده ، في المقام الأول ، الى الازدياد العظيم في صنع مواد كيمائية تتصف بالقدرة على ابادة الحشرات ، ولكنه ليس مقصورا عليها .

بين الأحياء على الأرض ، نباتات وحيوانات قادرة على تركيب مواد سامة في أجسامها والاستعانة بها في كفاح المنافس والعدو ، دفاعا أو هجوما . فمن الأعشاب ما يفرز من جذوره سموما تفتك بأعشاب تنازعها البقاء . ومن النباتات المعترشة نوع سام تعرفه السيدات المعنيّات بحدائق الزينة ، يعرف باللبلاب السام « المورد » ، وقد ذكره الدكتور « حتي » في « المعجم الطبي » باسم « الحلباب » . ومن الحيوانات أصناف سامة كقنديل البحر ، وعقرب البحر ، والزنابير ، والعقارب والأفاعي الناقعة السمّ . وقد ظل الانسان نفسه زمنا يطارد الحيوان بسهام مسمومة . بيد أنه لم يعمد الى صنع مركبات يكافح بها الأحياء المؤذية الا في عصر متأخر من تاريخه . وكان قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها الى الثانية ، يصنع مبيدات للحشرات من مواد غير عضوية ، تحتوي بعض المعادن أو المواد النباتية ، فتوافرت بين يديه مركبات من الزرنيخ أو النحاس أو الرصاص أو الزنك ، وغيرها ، ومادة « البايريثروم »(1) من زهر الأقحوان ، وكبريتات النيكوتين ، من النباتات التبغية أو الطباقية ، و « الروتينون » من بعض النباتات البقلية في جزائر الهند الشرقية .

بيد أن مبيدات الحشرات التي صنعت خلال الحرب العالمية الثانية ، تختلف عن مبيدات الحشرات غير العضوية في شدة أثرها الحياتي ، فهي لا تسمّ وحسب ، ولكنها تتسرب الى ثنايا المادة الحية ذاتها ، وتؤثر في الأفعال الحيوية ، على وجوه خبيثة فتاكة . فمنها مثلا ما يدمر الخمائر (الأنزيمات) التي تصون الجسم من الأذى ، أو يحول بين بعض الأعضاء وبين قيامها بوظائفها الطبيعية ، أو يستحدث في بعض الخلايا التحولات الأولى التي قد تفضي الى الأورام الخبيثة .

وقد نشأت هذه المبيدات المركبة بالتأليف الكيمائي ، من قدرة الكيمائيين ، المعاصرين على اقتحام الجزيئات ، وبخاصة الجزيئات الكربونية وتعديل بنيان الذرات فيها ، أو بادخال ذرات على تركيبها تحل محل ذرات أخرى ، فصار في وسعهم أن يصنعوا مئات أو ألوفا من المواد الكيمائية

(1) « عود القرح » كما جاء في معجم حتي .

المركبة الجديدة ، ومنها هذه المبيدات ، التي يطلقون عليها تعبير « مبيدات الآفات — Pesticides » أو مبيدات الحشرات — Insecticides » وأخرى على شاكلتها ، تستعمل لابادة الأعشاب الضارة التي تؤذي المحاصيل الزراعية ، لأنها تنافسها على الماء والضوء والمواد المغذية ، وتؤوي الحشرات وعوامل الأمراض .

هذه المبيدات الفعالة جماعتان كبيرتان من المواد الكيمائية . احداهما تمثلها مادة « د. د. ت » و يسمونها « الهيدروكربونات الكلورينية » أو « المكلورة »(٢) .

والجماعة الثانية مواد فصفورية عضوية . ووجه الشبه الأساسي بين الجماعتين ، ان ذرات الكربون تدخل في بنيتهما ، ومن هنا وصفت بأنها مواد « عضوية » . وسنقتصر هنا على وصف فيه شيء من الاسهاب لمادة « د . د . ت . » . التي صنعها أولا بالتركيب الكيمائي ، عالم ألماني عام ١٨٧٣ . وفي عام ١٩٣٩ ، كشف عالم سويسري ، يدعى « بول مولر » خصائصها في ابادة الحشرات ، فعدّ ذلك ظفرا كبيرا ، ومنح جائزة نوبل للطب ووظائف الأعضاء عام ١٩٤٨ .

وقد ثبت منذ التجارب الأولى التي أجريت عليها ، ان لها طاقة لم تعهد من قبل ، في الحرب الدائرة بين البشر والحشرات الناقلة لعوامل الأمراض الفتاكة ، كالتيفوس ، والتهاب المخّ السحائي ، وبخاصة البرداء (الملاريا) المنتشرة انتشارا واسعا . وقد أفضى أثرها القوي في كفاح البعوض الى انقاذ ملايين من الناس من الاصابة بما ينتهي بهم الى الموت أو الى ضعف منهك . وثبت ان لها قدرة أيضا على انقاذ محاصيل زراعية ثمينة ، فتضاعف بنتيجة استعمالها ، محصول القطن الأمريكي ، لأنها حدت من شرّة حشرة « البل ويفل » آفة شجيرات القطن .

ولكن يبدو الآن ان مادة « د . د . ت . » . تظل محتفظة بفعلها القاتل زمنا يعد بالسنين ، بعد أن تفرغ من ابادة الحشرات التي استعملت أولا لابادتها ، فتتسرب مع الماء من الحقول الى الجداول والأنهار والمياه الجوفية ، أو تستقر على ورق الشجر الذي رش بها ، أو تبقى معلقة في الهواء ، ملوثة كل ما تصل اليه . ومن العلماء من يقدر أن ثلثي ما صنع ورش من هذه المادة لا يزال هنا أو هناك . فقد وجدت مادة « د . د . ت . » في كل حي من الأحياء المائية ، وفي كل حيوان تقريبا ، حتى طائر البطريق ، في القارة المتجمدة الجنوبية ، فقد وصلته بفعل السلسلة الغذائية ، من أماكن بعيدة ، اذ ليست ثمة حاجة في تلك القارة الى استعمالها . وقد عمد عدد من حكومات الولايات الأميركية ، الى فرض حظر دقيق على استعمال د . د . ت .(٣) وجارتها حكومات أوربية ، فحظرت حكومة السويد حظرا باتا بيع مادة « د . د . ت . » وشقيقاتها خلال سنتين ، عندما ثبت لها بالبحث والرقابة وجودها في سمك الرنكة (هرنغ — herring) ، وتابعتها حكومتا الدانمارك وهولنده . وفرضت حكومتا بريطانيا وفرنسا رقابة دقيقة على استعمالها داخل حدودها ، وقيدت حكومة المانيا الفدرالية المقدار المعروض منها للبيع بمئة واثنين وتسعين (١٩٢) طنا وحسب في العام ، في طول بلادها وعرضها .

وليس تطهير مقومات البيئة من آثارها بالعمل الميسّر ، وان كان مستطاعا . ذلك بأنها مادة تتصف بصفتين : استدامة أثرها زمنا ، وسهولة انتقالها ، فهي كشقيقاتها من مواد « الهيدروكربونات المكلورة » لا تذوب في الماء ، فتتجمع في الأنهر والبحيرات والبحار ، خلال سنوات بعد تلويثها الأول لها . ويقدر نصف حياتها (أي المدة التي تنقضي حتى يهبط تأثيرها الى نصفه) بعشر سنوات الى خمس عشرة سنة .

ومع انها لا تذوب في الماء ، فانها تذوب في الأدهان والشحوم ، ويطّرد تراكمها وتركز مقاديرها بتوالي حلقات السلسلة الغذائية فهي تنتقل من حيوان صغير الى حيوان أكبر يأكل الصغير حلقة بعد حلقة الى آخر السلسلة . وقد وصفت سلسلة منها ، فاذا المقدار في ماء قريب من مستنقع قد بدأ قليلا جدا (٠,٠٠٠٠٠٣ على مليون) وانتهى بعد أربع مراحل أو خمس من الحيوينات فالأسماك الى تركيز في أجسام ضرب من الطير ، يبلغ ٢٥ على مليون . فازدياد التركيز ، بين أول السلسلة الغذائية وآخرها ، عشرة ملايين ضعف .

ولهذه المادة تأثير في الانجاب والتناسل . فالسمك البالغ قادر أن يحتمل مقدارا عاليا نسبيا منها ، دون أن يصاب بأذى ، ولكن السمك الجنين ، يموت من فوره عند امتصاصها من خلال غشاء كيس الصفار . أما في الطيور فانها تحدث خللا في تكوين بيض الأنثى وطرحه ، ويظن (لم يجْلُ البحثُ بعد هذا الأثر) أنها تؤثر في كبد الطير ، فتدفعها الى نوع من السعار في توليد الخمائر (الأنزيمات) فتحل محل مواد أخرى لها شأن في خفض تمثيل الكلسيوم . وبنقص الكالسيوم تغدو قشرة البيضة رقيقة قريبة العطب ، فتعجز عن حماية الجنين داخل البيضة . والى ذلك يرد أحد العلماء الأميركيين ما تبدى لهم من نقص العقاب الرخماء وطيور كبار أخرى .

وبالاضافة الى ما يحل بالسمك والطير ، ثمة الخطر الذي يهدد النظام البيئي برمته . ذلك بأن « البلانكتون النباتي — phytoplankton هو مدار فعل التركيب الضوئي في البحار ، كما يفعل الورق الأخضر على اليابسة ، وهذا الفعل له نتيجتان ، تكوين المواد الغذائية الأساسية ، واطلاق مقدار كبير في مجموعه من الأوكسجين الذي لا غنى عنه للحياة ، ويعزى الى فعل البلانكتون هذا سبعون في المائة من أوكسجين الأرض . فاذا هددت هذه الأحياء الدقيقة ، في أهم خواصها شأنا ، صار النظام البيئي الأرضي عرضة للخطر . وحسبنا أن نشير الى حادثة تدل على ما يحدثه تدخل الانسان من اضطراب في التوازن الحيوي في البيئة . ففي جزيرة ما ، في أحد المحيطات ، قامت حالة صحية اقتضت من ممثلي احدى المنظمات الدولية أن تذرّ الناحية بمادة « د . د . ت . » ، ففتكت بالذباب ، ولكن المادة بقيت فعالة في الذباب فأكلتها السحالي على عادتها ، فماتت ، فأكلت الهررة أجسام السحالي ، فمات منها عدد كبير ، فازداد عدد الجرذان ازديادا كبيرا ، واستفحلت شرّتها عندما قل عدد الهررة التي كانت تكبحها ، فغزت قرى عديدة ، فقام خطر نقلها للطاعون . فلم يجد ممثلو المنظمة مناصا يومئذ ، من استيراد الهررة بالطائرات واسقاطها بالمظلات ، حتى تستعيد الناحية شيئا من التوازن الحيوي في وحدتها البيئية .

ولمادة « د . د . ت . » شقيقات ست في جماعتها « المواد الهيدروكربونية المكلورة » وبنات عم في الطائفة الثانية المعروفة بالمواد الفصفورية العضوية .

ومن الشقيقات ما هو طيار فيستنشق ، ويؤثر في الجلد الحي ، ويتراكم قليلا قليلا ، ومنها ما قد يحدث التهاب الكبد ، أو أنواعا غريبة من السقم المميت تصيب الماشية ، وثمة أخرى تؤثر في الأعصاب وتسبب التشنج وهي أشد فعلا من د . د . ت . أربعين أو خمسين ضعفا في بعض الطيور مثل التَدرج والسلوى أو السماني . ويخشى أن يكون من أثر أخرى ، احداث العقم . فبعض طيور التدرج التي أجريت عليها التجارب ، أعطيت طعاماً فيه قليل منها لا يكفي لقتلتها ،

---

(٢) على وزن مهدرجة (من الهدروجين — hidrogen) مفصفرة (من الفصفور — phosphorated) مجوهرة ، مبلورة وغيرها . وذلك على التعريب وفق صيغة عربية الفت ، وكلمة مهدرجة أقرب الى (chlorinated) التي تعني ادخال الكلورين على الهيدروكربونات .

(٣) حظرت وزارة الزراعة الأميركية استعمالها على خمسين نوعا من الفاكهة والخضراوات ، وعلى أشجار الغابات ، والمواشي ، والمنازل ، وأعلنت انها قد توسع نطاق الحظر .

ولكن قل ما تطرحه من البيض ، وسرعان ما ماتت الصيصان المتولدة من بيضها . وكذلك جرذان التجربة ، قل حملها ، وكان ولدها سقيما قصير الأجل . والشقيقة الأخيرة انقعها سمّا حتى لقد قال أحد الباحثين ، ان د . د . ت . يبدو بالمقارنة معها ، مادة سليمة .

أما بنات العم ، فهي طائفة المواد الفصفاتية العضوية ، وهي كذلك بين أنقع المواد سما ، حتى ليصاب بتسمم حاد بها ، من يذرها أو يلامس خضارا ذر بها ، أو يمس علبة فارغة كانت تحويها . وهي تعمل بوجه عام على تدمير الخمائر (الأنزيمات) التي يحتاج اليها الجسم الحي في القيام بعدد من وظائفه الحيوية ، فيحدث التشنج أو الشلل . وقد روي ، ان أحد الباحثين ، أراد أن يعرف مباشرة ، ما هي الجرعة في احدى هذه المواد التي يستطيع الجسم البشري أن يحتملها دون أن يصاب بأذى ، فتجرع هو قدرا قليلا جدا منها ، فأصيب بالشلل على التوّ ، قبل أن يتمكن من الوصول الى الترياق الذي أعده تحسبا وجعله في متناول يده . ولم يلبث حتى فارق الحياة .

هذه جوانب وحسب ، من الصورة التي ترسم لآثار هذه المواد في الأحياء ، وفي البيئة التي يعيشون فيها ، والذين يرسمونها لا ينكرون ما كان لها من أثر طيب في الحد من بعض الأمراض والآفات . بيد ان هناك فئة من العلماء والباحثين ، ترى ان في الصورة مبالغة وان بعض النقد الموجه اليها لم يقم عليه دليل مقنع . ويذهب عالم ميكروبيولوجي ، حائز جائزة نوبل في الكيمياء ، ان المعرفة العلمية الوثيقة ، بكيفية تفاعل مادة د . د . ت . (وشقيقاتها وبنات عمها) مع المواد الكيمائية في الجسم الحي ، لا تزال ضئيلة ، وتحتاج الى بحوث وتجارب دقيقة . ويرى عالم آخر وجوب وضع برنامج عالمي النطاق منسق لهذه البحوث .

ومن جملة الحقائق المتراكمة ، تجعل من العسير ، ابراء ذمة هذه المواد ، من كثير مما يسند اليها . وقد نقص ما يصنع منها نقصا كبيرا (٨٠٪ في الولايات المتحدة) . وحد من استعمالها ان أنواعا عديدة من الحشرات (يقدر بمائة وخمسين نوعا) قد ولدت أنواعا جديدة عصية على المبيدات ، ومن هنا أخذ العلماء يتجهون في دراستهم مكافحة الحشرات والآفات ، الى البحث في توليد أصناف من المحاصيل تحتوي في بنيتها ما يجعلها منيعة على الآفات ، فلا تكون ثمة حاجة الى رشها بالمبيدات ، أو انهم يسعون الى ابتكار طرائق جديدة للتغلب على الحشرات ذاتها ، بتعقيم ذكورها فلا تتناسل حتى تنقرض ، أو باستدراجها بالضوء والصوت ثم القضاء عليها . وهذه وسائل لا تنطوي على أخطار د . د . ت . ومثيلاتها ، ولكنها لا تجاريها سرعة أثر وسعة نطاق ■

تعقيب

طالعت المقال « اسم العرب » مرارا فثبت لي من خلال درسه وتحقيقه ان الأستاذ الفضل صاغ الترجمة بأسلوب بديع ولغة سلسة خالية من التعقيد والتزمت ، وقد دلني كل ذلك على نهاوة الفضل وسمو أدبه ووفرة علمه فإليه مني الشكر والتقدير .

فالاستدلال على الترجمة عن الانكليزية ظاهر ، بنقل البحث على علاته دون تمحيص وتدقيق في التواريخ والمراجع التي أوردها ، وهي غير مثبتة كما يتضح ذلك من البيان التالي ..

*** أخلوس : Aechyllus وليس Aeshyllus**

*** التاريخ على قبر الملك الشاعر امرىء القيس يرجع الى سنة ٥٤٠م ، لا الى سنة ٣٢٨م . أي ان النص مسجل قبل الاسلام بنحو قرن تقريبا ، لا ثلاثة قرون .**

*** شلمناصر الثالث سنة ٨٥٤ ق.م. أما شلمناصر الثاني الوارد ذكره في المقال فقد حكم سنة ١٠١٠ ق.م.**

*** فوفزتان : لا أثر لهذه التسمية في الموسوعات الأجنبية والكتب التاريخية . ولعل السيد الفضل أراد « البارثستان » بلاد البارثيين ، سكان العراق القدماء وأكل حديث عنهم في تاريخ المملكة زنوبيا لتوينبي .**

*** فرفر : أين موقع هذه الفرفر ؟ هل تلفظ بالفاء أم بالقاء أم بالواو .. ؟ .**

*** سيلفون ! أم سيلمان ؟**

*** « ولا يخيم هناك عربي » لا أثر لهذه الآية في الاصحاح التاسع عشر من سفر أشعيا وليس امشعيا ، اذ لا وجود لهذا السفر ولا لهذه التسمية عند اليهود .**

*** أرميا الاصحاح ٢٥ « وكل ملوك العرب قسمان : حضريون وبدويون » . الأصح « وكل ملوك العرب وكل ملوك اللفيف الساكنين في البرية » .**

*** الاصحاح ٢٧ حزقيال : العرب وكل رؤساء قيدار هم تجار يديك .. والأصح هم تجار يدك والخطاب لمدينة صور .**

*** قيدار : قِيدار بكسر القاف كما تلفظ باليونانية والعبرية (أطلب دائرة معارف الكتاب المقدس وراجع اللفظ باليونانية أو العبرية) ، وقد نقلت الى اللغات اللاتينية الحديثة Kedar, Kidar**

وأخيرا ، تتبعت المواضيع ووقفت عند قصة أليسار بقلم الأستاذ محمد العريضي قصة أدبية رائعة أشغلت أدباء القرون الوسطى والفنانين حتى أواسط القرن الثامن عشر (أطلب الموسوعات الأجنبية وبخاصة الأنسيكلوبيديا الفرنسية — لاروس المصورة) . Didon — Elissar, Elisa

*** اليسار : الأصح اليصّر ، بالصاد المشددة وباللغات الأجنبية نقلا عن اليونيكية الفينيقية ، تكتب هكذا : Elissar, Elisa, ou Didon**

*** اسم أبيها — موطو Mutto أو بعل**

*** اسم زوجها رئيس كهنة صور : سيكار أو سيكار يلبس Siccar, Siccarbas سيخاربس Sicharbas**

*** اسم ملك البربر : هياربس أو جرباس Hiarbas ou Jarbas كما يلفظ باللغات اللاتينية الحديثة . وليس اسمه « يابون » ..**

هذا ما عن لي كتابته اليك يا أستاذي النابه .. فان كنت قد أخطأت بمبادرتي هذه أم بملاحظاتي ، فحلمك أولى بالمعذرة وأوسع من تطفلي على مائدة معرفتك وعلمك وعلى دوحة أبحاث الأستاذين الأديبين ، وان كنت قد أصبت فذلك مما يسرني ويشرفني اذ أشعر بأن التنبيه الى شيء من ذلك ، يشجع الباحثين على اتحاف العالم العربي بدراساتهم الدقيقة .

وهكذا تجد يا أستاذي ان ما أتيت به ليس سوى ترجيع صدى علمك الواسع وأدبك الجم في هذه الشقة النائية من الأرض يردده باحترام واكبار كلي من لا تعرفه شخصيا ، وتربطك به وشائج لغة وجنس وعلم .

ولشخصك الكريم أوفر التحيات وأوفى تجلة واعتبار ■

جورج ليان
سنطوس — البرازيل



مدينة الزهراء الأندلسية

قصَّتهُا وآثارُها المكْتَشَفَة

بقلم الاستاذ محمد عبد الله عنان

قطعة من المرمر المزخرف عثر عليها بين الحفائر .

من الضواحي الملوكية التي اشتهرت في التاريخ والشعر ، مدينة الزهراء الخليفية التي أنشأها الخليفة الأموي الأندلسي عبد الرحمن الناصر لدين الله ، وهو الـذي استطال حكمــه خمسين عامــا مــن سنة ٣٠٠ الى سنة ٣٥٠هـ .

وكانت قرطبة حاضرة الأندلس العظيمة ، وبالرغم مما بلغته في عهد الناصر من الفخامة والرواء والسعة ، فقد أخذت تضيق بما يتطلبه ملك عظيم كملك الناصر من استكمال الفخامة الملوكية ، والقصور والميادين الشاسعة ، والرياض النضرة المترامية . وكانت الرّصافة ، وهي الضاحية التي أنشأها جده عبد الرحمن الداخل ، لتكون منزلا ومتنزها ملوكيا ، قد عفت وغاضت فخامتها . فاعتزم الناصر ، بعد أن بلغ ما أراد من توطيد ملكه ، وسحق خصومه في الداخل والخارج ، واتشح بثوب الخلافة المنيف سنة ٣١٦هـ (٩٢٨م) أن يعرض آيات من ملكه الشامخ ، وثاب له رأي في أن يقيم بجوار قرطبة ، ضاحية ملوكية عظيمة ، تكون له منزلا فخما ، ومقرا لحاشيته وحكومته ، وعنوانا لسلطانه ، فأنشأ مدينة الزهراء .

ولسنا نقف عند القصة ، التي ينسب اليها انشاء الزهراء ، وهي ان الذي أوحى الى الناصر ببناء هذه الضاحية الملوكية العظيمة هي جاريته وحظيته « الزهراء » ، بل نؤثر أن نرجع مشروع الناصر الى بواعث الملك والسياسة ، والى عرض عظمة الملك وفخامته .

وقد اختطت الزهراء في ساحة تقع شمال غربي مدينة قرطبة ، على قيد ستة أميال منها في سفح جبل يسمى « جبل العروس » . وكان البدء في انشائها في المحرم سنة ٣٢٥هـ (٩٣٦م) وحشد الناصر لها أمهر المهندسين والصناع والفنيين من سائر الآفاق ، وجلب اليها أفخر أنواع الرخام الأبيض والملون . وكان يشتغل في بنائها كل يوم من العمال والفعلة عشرة آلاف رجل . واستمر العمل في منشآتها بقية عهد الناصر ، أعني مدة خمسة وعشرين عاما ، واستكملت في عهد ولده الحكيم . وقدرت النفقة على بنائها بثلاثمائة ألف دينار في العام . وأنشأ الناصر في حاضرته الجديدة قصرا فخما لم يدخر وسعا في تنميقه وزخرفته حتى غدا تحفة رائعة من الفخامة والجلال ، تحف به رياض وجنان يانعة . وأنشأ فيه مجلسا ملوكيا جليلا سمي « قصر الخلافة » . وقد صنعت جدرانه من الرخام المزين بالذهب ، وفي كل جانب من جوانبه ثمانية أبواب ، قد انعقدت على حنايا من العاج ، والأبنوس المرصع بالذهب والجوهر ، وزينت جوانبه بالتماثيل والصور البديعة ، وفي وسطه صهريج عظيم مملوء بالزئبق . وكانت الشمس اذا أشرقت على ذلك المجلس ، سطعت جوانبه بأضواء باهرة جذابة .

وزود الناصر مقامه في قصر الزهراء ، وهو الجناح الشرقي المعروف « بالمؤنس » بأنفس التحف والذخائر ، ونصب فيه الحوض الفاخر ، المنقوش بالذهب ، الذي أهدي اليه من قيصر قسطنطينة . وأنشأ الناصر في الزهراء أيضا مسجدا عظيما تم بناؤه في ثمانية وأربعين يوما . وزوده بعمد وقباب فخمة ومنبر رائع الصنع والزخرف ، فجاء آية في الفخامة والجمال . وأنشئت بالزهراء مجالات فسيحة للوحوش ومسارح للطير مظللة بالشباك ، ودار عظيمة لصنع السلاح ، وأخرى لصنع الزخارف والحلى . والخلاصة ان الناصر أراد أن يجعل من الزهراء قاعدة ملوكية حقة ، تجمع بين فخامة الملك وصولة السلطان المؤثل ، وعناصر الادارة القوية المدنية والعسكرية .

واستمر العمل في منشآت الزهراء حتى وفاة الناصر في سنة ٣٥٠هـ ثم استمر معظم عهد ابنه الحكيم ، واستغرق بذلك من عهد الخليفتين زهاء أربعين عاما . ولكنها غدت منزل الملك والخلافة مذ تمّ بناء القصر والمسجد في سنة ٣٢٩هـ . وبذا كانت الزهراء ، الى جانب قرطبة ، أول منزل للخلافة الأموية في الأندلس .

وقد انتهت الينا عن هذه الضاحية الملوكية الشهيرة أوصاف وأرقام ، تظهر ما كانت عليه من الضخامة والفخامة . فقد ذكر « ابن حيان » مؤرخ الأندلس ان الزهراء كانت تشغل مسطحا قدره تسعمائة وتسعون ألف ذراع ، وان مبانيها كانت تشتمل على أربعة آلاف سارية « ما بين صغيرة وكبيرة » منها ما جلب من مدينة رومة ، ومنها ما أهداه قيصر قسطنطينة ، وان مصاريع أبوابها كانت تبلغ زهاء خمسة عشر ألفا ، وكلها ملبسة بالحديد والنحاس المموّه . وذكر مؤرخ آخر ان عدد الفتيان بالزهراء كان ثلاثة عشر ألفا وسبعمائة وخمسين ، وعدد النساء والحشم بالقصر ستة آلاف وثلثمائة ، يصرف لهم في اليوم ثلاثة عشر ألف رطل من اللحم ، سوى الدجاج والحجل وغيرها ، وهذه الأرقام تنبئنا بالفعل بما كانت عليه مدينة الزهراء من الضخامة والبذخ والروعة ، التي تكاد تفوق التصور والخيال .

بيد ان الزهراء لم تعمر طويلا كقاعدة ملوكية ، فقد لبثت قاعدة الملك والخلافة زهاء أربعين عاما فقط ، مذ نزل بها الناصر سنة ٣٢٩هـ ، حتى نهاية عهد ابنه الحكيم المستنصر سنة ٣٦٦هـ ، ولم يكن ذلك لأن الزهراء قد عفت كقاعدة ملوكية ، ولكن لأن تحولا خطيرا قد وقع في سلطان بني أميّة عقب وفاة الحكيم وتولية ولده الصبي هشام ، حيث استطاع الوزير محمد بن أبي عامر (الحاجب المنصور) أن يتغلب على الدولة وأن يحجر على الخليفة هشام ، ثم رأى بعد ذلك أن ينقل قاعدة الحكم من الزهراء الى ضاحية ملوكية جديدة أنشأها لنفسه في شرقي قرطبة (سنة ٣٦٨هـ) على نهر الوادي الكبير أسماها الزاهرة ، ونقل اليها خزائن الأموال والسلاح ودور الحكومة ، واتخذ لنفسه سمة الملك وتلقب بالحاجب المنصور ، وبذا انتهت حياة الزهراء الملوكية .

ثم عفا عليها الزمن بعد ذلك تباعا ، حيث وقع انهيار بالدولة العامرية ، ثم انهيار الخلافة الأموية في أواخر القرن الرابع الهجري ، واضطرمت الثورات المتعاقبة ، واقتحمت الزهراء وقوضت صروحها الفخمة ونهبت ذخائرها وتحفها ، وغمرها الخراب والنسيان . ولا يكاد اسم الزهراء يذكر بعد ذلك في التاريخ الأندلسي الا كأثر عصفت به صروف الدهر . وقد كانت الزهراء أيام مجدها وازدهارها وحي الشعر الرائع والخيال الخصيب ، وقد أشاد بجمالها وفخامتها جمهرة من أكابر شعراء الأندلس ، ثم رثوها بعد ذلك في قصائد مؤثرة . ومما قاله « ابن زيدون » ، وهو من أعظم شعراء عصر الطوائف يشيد بالزهراء ورائع ذكرياتها :

خليلي لا فطر يسر ولا أضحى — فما حال من أمسى مشوقا كما أضحى

لئن شاقني شرق العقاب فلم أزل — أخص بممحوض الهوى ذلك السفحا

معاهد لـذات وأوطـان صبـوة — أجلت المعلّى في الأماني بها قدحا

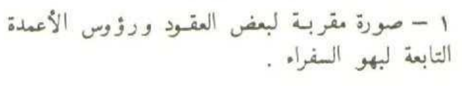
ألا هـل الى الزهراء أوبـة نـازح — تقضت مبانيهـا مدامعـه نـزحا

مقاصير ملك أشرقـت جنباتهـا — فخلنا العشاء الجون أثناءها صبحا

محل ارتياح يذكر الخلد طيبه — اذا عزّ أن يصدى الفتى فيه أو يضحا

هناك الجمام الزّرق تندى حفافها — ظلال عهدت الدهر فيها فتى سمحا

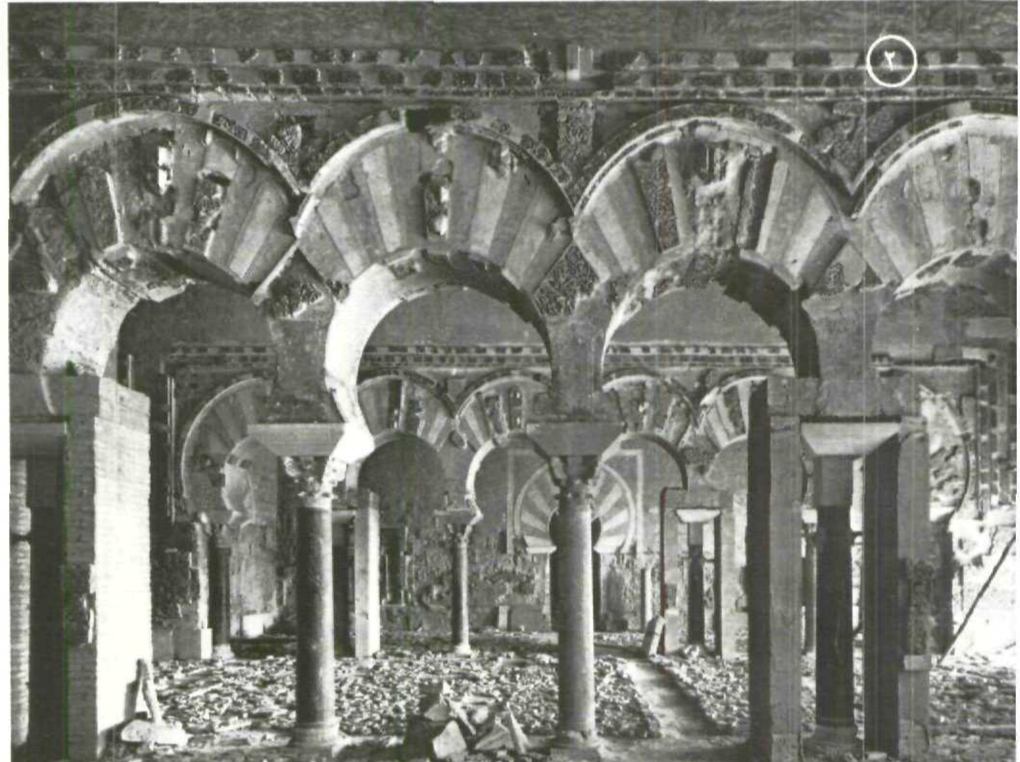
تعوضت من شدو القيان خلالها — صدى فلوات قد أطار الكرى صبحا



١ – صورة مقربة لبعض العقود ورؤوس الأعمدة التابعة لبهو السفراء .

٢ – بهو السفراء أو « المجلس المؤنس» من الآثار التي عثر عليه علماء الآثار الاسبان بين حفائر مدينة الزهراء ، وقد رصت القطع الزخرفية التي كانت تزين العقود والأعمدة على أرضه .

٣ – كان من بين ما عثر عليه في أنقاض مدينة الزهراء أعمدة من المرمر وبعض رؤوسها وقواعدها الزخرفية .



تلك هي قصة مدينة الزهراء المشجية ، وقد لبثت بعد خرابها عصورا ، اسما يذكر فقط ، ولا نكاد منذ أيام الطوائف نظفر لها بذكر في صحف التاريخ الأندلسي .

ومنذ نحو قرن فقط عادت سيرة الزهراء وذكريات فخامتها الذاهبة ، تحتل المقام الأول في تاريخ اسبانيا العربية المعماري والفني ، واهتم العلماء الاسبان بالكشف عن معالمها وأطلالها الدارسة ، لما يلقيه ذلك الكشف من أضواء هامة على أحوال الخلافة الأندلسية ونظمها الادارية والاجتماعية ، وعلى تطور الفن الأندلسي في أزهى عصوره . وعنيت الحكومة الاسبانية منذ بداية القرن الحالي باجراء الحفريات الأثرية للكشف عن صروح المدينة الخليفية . وقد استطاع علماء الآثار الاسبانيون خلال الخمسين عاما الأخيرة أن يكشفوا عن كثير من معالم الزهراء التاريخية ، ومواقع صروحها وأبهائها الملوكية .

وقد أتيح لنا أن نزور معالم الزهراء وأطلالها غير مرة . وتقع هذه الأطلال الضخمة على مقربة من غربي قرطبة ، وعلى قيد ميلين من شمالي نهر الوادي الكبير ، وتحتل منحدرا صخريا وعرا ، يقع أسفل الأكمة التي يحتلها دير « سان خيرنمو » . وتسمى هذه المنطقة التي تحتلها أطلال الزهراء « قرطبة القديمة « Cordoba la Vieja »

وتشغل الحفريات الأثرية التي يقوم بها العلماء الاسبان منذ سنة ١٩١٠ منطقة واسعة تمتد ١٥١٨ مترا من الشرق الى الغرب ، و ٧٤٥ متراً من الشمال الى الجنوب ، ومع ان هذه المنطقة لم تكتشف كلها ، فان ما كشف حتى الآن من أطلالها الضخمة ، ومن نقوشها وزخارفها ، يكفي لتكوين فكرة عامة عن هندسة المدينة الملوكية ، ومناعتها ، وفخامة صروحها .

وتنقسم أطلال الزهراء بصفة عامة الى مجموعات ثلاث ، مدرجة من أعلى الى أسفل . وتشمل المجموعة الأولى مواقع القصر الخليفي والمقام الخاص . وتشمل الثانية فيما يبدو مساكن الحاشية والحرس . وتشمل المجموعة الثالثة ، وهي الواقعة أسفل الربوة في بسيط معتدل من الأرض ، أربعة أفنية كبيرة عالية ، هي التي عني خلال الأعوام الأخيرة بضمها ، واعادة تشكيلها ، فيما يظن انه البهو العظيم الذي كان مخصصا لاستقبال الملوك وأكابر السفراء .

وقد تم الكشف عن هذا البهو ، الذي يعتبر أعظم ما كشف حتى اليوم من آثار الزهراء ، في سنة ١٩٤٤م ، ووجدت سائر حطامه وزخارفه مدفونة تحت الأنقاض . وقد عكف الأثريون الاسبان عدة أعوام ، على اقامة هذا الصرح وتنميقه ، مما وجد في أنقاضه وأعمدته وزخارفه . وقد أقيم في وسطه ما اصطلح على تسميته « بهو السفراء » أو باسمه التاريخي « المجلس المؤنس » وهو عبارة عن أربعة أفنية متلاصقة ، تبلغ واجهتها نحو أربعين مترا ، وقد قسمت من الداخل الى ثلاثة أروقة مستطيلة يتوسطها رواق رابع ذو عقود من الجانبين . ويقوم كل فناء منها على خمسة عقود ، وقد ركب على هذه العقود ما وجد بين الأطلال من رؤوس وقواعد رخامية مزخرفة . وفي وسط الرواق الثالث عقد جميل عال يفضي الى بهو داخلي زين جانباه بالزخارف الرخامية . ويبلغ طول كل رواق من الأروقة المذكورة نحو عشرين مترا ، وعرضه نحو ثمانية أمتار . وقد صنعت العقود كلها على نمط واحد ، وزينت من أعلاها بما أمكن جمعه من القطع الزخرفية ، وقد شيدت هذه الأروقة على ارتفاع يبلغ نحو عشرة أمتار .

وقد كشفت الحفريات الأخيرة عن مجموعة جديدة من الأطلال ، تقع أعلى هذه الابهاء من اليسار ، وهي عبارة عن مجموعة من الغرف السكنية وبهو مستقل ، وهي لا تفترق كثيرا عن غيرها من المجموعات الأخرى المماثلة ، من حيث التخطيط ، ولكنها تكشف عن حقائق معمارية وفنية هامة ، فهي المجموعة الوحيدة التي وجد بها أثر الدهان واضحا . وقد تبين ان لون الدهان الذي كان مستعملا في هذه المساكن (مساكن الحاشية) هو اللون الأحمر ، يحف به على ارتفاع نحو متر ونصف خط أبيض ، يعلوه خط أحمر . وتبين كذلك ان البلاط المستعمل في تغطية أرض الغرف هو أيضا أحمر اللون ، وهو عبارة عن قطع مربعة يبلغ ضلع الواحدة منها أربعين سنتيمترا .

والى جانب هذه المجموعات الجديدة من أطلال الزهراء ، توجد المجموعات القديمة ، وهي تشمل موقع القصر الخليفي ، الجدار الشمالي ، والفناءين التوأمين المتصلين بالمنحدر ، والفناء الصغير المتصل بقصر الخلفاء ، ومجموعة من مساكن الحرس . وترجع منطقة الجدار الشمالي الى عصر الناصر ذاته ، وهي من منشآته في المرحلة الأولى من بناء الزهراء ، وقد أصلحت على امتداد سبعين مترا . وهذا الجزء من الجدار أمتن وأحكم صنعا من القسم نفسه الذي أعيد بناؤه فيما بعد في عهد الحكم المستنصر .

أما عن الفنائين المتماثلين أو الفنائين التوأمين ، فيقع أولهما على بعد ثمانية أمتار أسفل القصر الخليفي ، ويشتمل كل منهما على بهو كامل . وهناك ما يدل على ان كلا منهما كان يحتوي على مجموعة من المساكن المتماثلة المخصصة لسكنى طائفة بارزة من البطانة أو الجند ويشغل الفناء الغربي رقعة ضخمة مربعة تقريبا ، تبلغ مساحتها نحو خمسمائة متر ، وبه أيضا بقايا أبنية سكنية . بيد أنه لم يكتشف في هذه المنطقة أبواب أو مداخل ، تكشف عن حقيقة نوع هذه الأبنية . والظاهر ان الفناء الشرقي كان موقع مسكن « للحريم » أو بعبارة أخرى كان جناحا للقصر الذي تسكنه النساء والأولاد حسبما تدل على ذلك آثار أبنيته ومرافقه .

وقد عثر المكتشفون ، الى جانب هذه المجموعات الضخمة من أطلال المدينة الخليفية على مجموعة كبيرة من القطع الزخرفية ، والعقود والأعمدة ، والألواح والأحواض الرخامية ، ومئات من القطع والأواني الزخرفية والبلورية . وقد جمعت كلها في متحف خاص أقيم عند مدخل « مدينة الزهراء » وعرضت فيه بعض القطع والأحواض الرخامية البديعة الزخرف والنقوش ، وبعض الأواني الخزفية والبلورية المصححة ، وأقيم الى جانب المتحف بهوان كبيران ، يغص كلاهما بالقطع الزخرفية والبلورية المتكسرة التي يعكف الأخصائيون على فحصها وتصحيح ما يمكن تصحيحه منها .

وكان من أنفس ما عثر عليه المكتشفون بين أطلال الزهراء تمثال لوعل من البرونز الأسمر الدقيق الزخرف ، وهو يحفظ اليوم في المتحف الأثري في مدينة قرطبة الى جانب عدة لوحات وقطع رخامية بديعة أخرى ، عثر عليها أيضا بين أطلال الزهراء . ويوجد نموذج من هذا الوعل محفوظ في متحف الزهراء الذي سبقت الاشارة اليه .

هذا ، ولعل حفائر الزهراء المقبلة تكشف لنا عن معالم كثيرة أخرى ، من ضروب الفخامة التي كانت تتسم بها المدينة الخليفية ، والتي تحدثنا عنها الروايات المعاصرة في دهشة واعجاب ■



• ما انفك المحقـّقون يدأبون في اخراج كنوز الضاد المخطوطة وينشرونها نشرا علميا ويضيفون اليها ما يرتأون من تعليقات وهوامش وشروح تضفي على هذه الآثار مزيدا من النفاسة وتجعلها كبيرة الفائدة للمحدثين من الباحثين وطلاب العلم .

ومن أنفس المخطوطات التي أخرجت أخيرا : « كتاب المناسك وأماكن الحج » للامام أبي اسحق الحربي ، وقد حققه العلامة الكبير الشيخ حمد الجاسر ، ونشرته دار اليمامة و « ديوان شعر المتلمس الضبعي » برواية الأثرم وأبي عبيدة عن الأصمعي ، وقد حقـّقه تحقيقا ممتازا الشاعر الكبير الأستاذ حسن كامل الصيرفي ، وصدر عن معهد المخطوطات العربية و « ديوان شعر الحادرة » املاء أبي عبد الله بن العباس اليزيدي عن الأصمعي وقد حققه بعناية فائقة الدكتور ناصر الدين الأسد ، وصدر عن معهد المخطوطات العربية ، و « المفردات في غريب القرآن » للراغب الأصفهاني وقد حققه وقدّم له الدكتور محمد أحمد خلف الله ، ونشرته مكتبة الأنجلو المصرية ، و «اللباب في شرح الشهاب» للقضاعي وقد حققه الدكتور أبو الوفا المراغي ، وصدر عن المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية ، و « التنوير في اسقاط التدبير » لابن عطاء الله السكندري وقد حققه الأستاذ موسى محمد علي والأستاذ عبد العال العرابي وقدم له الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار ، وصدر عن مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر و « نجمة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد » وهو معجم للشيخ ابراهيم اليازجي حققه وراجعه الأستاذ نديم آل ناصر الدين وصدر عن مكتبة لبنان .

هذا ويعكف الشاعر الأستاذ حسن كامل الصيرفي على تحقيق « ديوان سلامة بن جندل » و « ديوان الحارث بن حلزة » .

• أصدر العلامة الأستاذ خير الدين الزركلي كتاب « المستدرك الثاني » وفيه استدراكات جديدة على قاموسه الشهير « الأعلام » الذي ترجم فيه لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين .

• ومن الدواوين الشعرية الجديدة التي ظهرت مؤخرا هذه المجموعة : « صفارة الانذار » و « رباعيات » وهما للشاعر الأستاذ سعد البواردي ، وقد صدرا عن دار الاشعاع و « أساطير ملهمة » للشاعر الدكتور زكي المحاسني ، وقد صدر عن دار المعارف و « ينبوع الفضائل » وهو ديوان للشاعرة الأرجنتينية كرمن كنسينو وقد ترجمه الأستاذ جواد نادر ، ونشرته مجلة الحياة الجديدة بالأرجنتين و « قصائد شعبية » للأستاذ عبد الرحمن رفيع وقد نشرت في البحرين .

وقيد الطبع ديوان الشاعر الكبير بدوي الجبل والجزء الثالث من ديوان « أغاني المزرعة » للشاعر المهجري الدكتور سليمان داود .

وقد صدرت ملحمتان جديدتان مترجمتان هما « ملحمة السيد » وقد كتبت في الأندلس باللغة القشتالية وتولى درسها الدكتور الطاهر أحمد مكي ، ونشرتها دار المعارف ، و « ملحمة جلجاميش » وقد ترجمها الأستاذان محمد نبيل نوفل وفاروق حافظ القاضي ونشرتها دار المعارف

• من الأبحاث الاسلامية الجديدة ما يلي : الجزء الأول من « الفتاوى » للشيخ حسن مأمون ، وقد نشره المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية و « سورة الرحمن وسور قصار » من تأليف الدكتور شوقي ضيف ، وقد نشر عن دار المعارف والأجزاء التاسع والعاشر والحادي عشر والثاني عشر من « التفسير الفريد للقرآن المجيد » من تأليف الدكتور محمد عبد المنعم الجمال ونشر دار الكتاب الجديد و « الاسلام شريعة الله الخالدة » للأستاذ عبد العظيم منصور و « اعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق » للدكتور حفني محمد شرف و « الأخلاق وقواعد السلوك في الاسلام » للأستاذ عبد العظيم منصور و « من روائع الاعجاز في القرآن الكريم» للدكتور محمد جمال الدين الفندي و «في رحاب السنة» للدكتور عبد الله محمود شحاته و « أثر الاسلام في الخطابة العربية » للدكتور ابراهيم عوضين ، وكلها من مطبوعات المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية و « الدين والعلم » للشيخ زيد بن فياض نشر الحجاز و « العالم الاسلامي المعاصر » للدكتور جمال حمدان ونشر عالم الكتب .

• أعاد مجمع اللغة العربية بدمشق طبع العدد الأول من مجلته بمناسبة مرور خمسين عاما على انشاء المجمع باعتبار هذا العدد تذكاريا ولنفاده وصعوبة الحصول عليه . كما صدر أخيرا معجم « الرافد » للأمير أمين آل ناصر الدين .

• في الأدب الروائي صدرت طائفة من الكتب منها « طرائف القصص » للأستاذ علي الجندي العميد الأسبق لدار العلوم ، وقد نشرتها مكتبة الأنجلو المصرية و « من القصص الاسلامي » للأستاذ حسين الطوخي ، وقد صدر عن دار الشعب و « قلوب من زجاج » وهي رواية للأديبة السورية مسرّة نعمان الطباع ، وقد صدرت عن مكتبة الأنجلو و « نور الظلام » وهي مسرحية للدكتور رشاد رشدي ، وصدرت عن مكتبة الأنجلو و « العين بالعين » مسرحية لوليم شكسبير ترجمها الدكتور زاخر غبريال وراجعها الدكتور عادل سلامة ، ونشرتها وزارة الارشاد الكويتية و « الليلة الأخيرة في القرن العشرين » وهي أقاصيص من الأدب الألماني ترجمها الأستاذان فوزي سليمان ونبيل راغب ، وصدرت في منشورات كتابات معاصرة . كما صدرت حكايات للأستاذ كمال الملاخ عنوانها « النار والبحر » وهي من توزيع الأهرام .

كذلك أخرج الأستاذ عدنان بن ذريل دراستين في الأدب المسرحي هما « مسرح وليد مدفعي » و « الدراسة النفسية لفن الوصف القصصي والروائي عند عبدالسلام العجيلي » ، وقد صدرتا عن دار الأجيال في دمشق . و « اللعبة » رواية للأستاذ يوسف الصائغ ، وقد نشرتها دار الكلمة ببغداد و « جاتسبي العظيم » رواية لسكوت فتزجيرالد ترجمة الأستاذ نجيب المانع ومراجعة جبرا ابراهيم جبرا ، ونشر دار الهلال و « قناع الكراهية » رواية لبربارة مكوروكوديل وقد ترجمها الأستاذ جرجس منسى وصدرت عن دار الكتاب الجديد و « أبو الريحان البيروني » مسرحية للاستاذ رشــاد دارغوث صدرت عن مطابع الاسبوع العربي و « قلادة من شوك » أقاصيص للأستاذ رستم كيلاني قدم لها الأستاذ محمود تيمور وصدرت عن دار الكتب الجامعية بالقاهرة و « ١٤ يوليو » مسرحية لرومان رولان ترجمها الأستاذ عبد المسيح سبتي وراجعها الأستاذ حمادة ابراهيم ، وقد نشرتها وزارة الاعلام الكويتية .

• من كتب التراجم والسير التي صدرت وستصدر قريبا : « رشيد رضا » للدكتور أحمد الشرباصي ، وقد نشره المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية و « أعلام في الاسلام » للدكتور عبده بدوي ، وهو كذلك من منشورات المجلس الأعلى و « فهد العسكر : حياته وشعره » طبعة جديدة موسعة للأستاذ عبد الله زكريا الانصاري ، وصدرت عن رابطة أدباء الكويت ، و « بيتهوفن » للدكتور حسين فوزي ، وقد صدر عن دار المعارف و « محمد عبد الوهاب » وهو دراسة عن المطرب المعروف أعدها الأستاذ محمود عوض ، وقد نشرت في سلسلة « اقرأ » لدار المعارف و « الجاحظ .. دائرة معارف عصره » و « ابن الرومي شاعر الغربة النفسية » و « المتنبي شاعر السيف والقلم » وأحمد شوقي شاعر الوطنية والمسرح والتاريخ » و « جبران خليل جبران عبقري من لبنان » وجميعها للأستاذ فوزي عطبري .

• في التاريخ العربي صدر كتاب « الملاحة في الخليج العربي » للأستاذ عيسى أحمـــد النشمي ، وقد نشرته مؤسسة فهد المرزوق الكويتية و « البطولة العربية في الأندلس وفرنسا » للأستاذ عبد العزيز حافظ دينا ، وقد صدر عن المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية و « عبر وعبرات من دمشق والأندلس » للأستاذ جواد المرابط ، وقد نشرته دار العربية للطباعة والنشر في بيروت .

ويصدر قريبا للعلامة المؤرخ الكبير الأستاذ محمد جميل بيهم كتاب عن التاريخ العربي المعاصر .

• مجموعة من كتب التربية وعلم النفس صدرت أخيرا منها « الانسان وصحته النفسية » للدكتور مصطفى فهمي ، وقد صدر عن مكتبة الأنجلو ، و « مقدمة علم النفس التربوي الرياضي » للدكتور محمد حسن هلاوي ، وقد نشرته دار المعارف و « مبادىء التربية وطـــرق التدريس » للأستاذ عبد المجيد عبد الرحيم ، وقد صدر عن مكتبة النهضة المصرية و « المرجع في التربية الفكرية » للأساتذة لطفي بركات أحمد وعوض فرج جرجس ومحمود عويس الكومي وقد نشرته مكتبة النهضة .

• من كتب الادارة صدر عن دار المعارف كتابان هما « مبادىء المالية العامة — دراسة في الاقتصاد العام » للدكتور أحمد عبده محمود و « الادارة العلمية » للدكتور علي السلمي .

• من الكتب الدينية التي صدرت أخيرا « في مولد النبي » للسيد حسين الشافعي ، وقد نشرته دار المعارف في سلسلة « اقرأ » و « ذكر ودعاء » للأستاذ عبد الله أبو زينة ، وقد نشرته دار الشعب و « مذاهب الاسلاميين » للدكتور عبد الرحمن بدوي ، وقد نشرته دار العلم للملايين و « المسلمون في أوربا في العصور الوسطى » للدكتور ابراهيم علي طرخان ، وهو من منشورات الألف كتاب .

كما صدر كتاب « أحاديث الرسول » مبوّبا بطريقة المعجم وقدم له الدكتور حسن عزالدين ، ونشرته دار النهضة العربية . « الاعلام في صدر الاسلام » هو آخر ما نشر من مؤلفات الفقيد الراحل الدكتور عبد اللطيف حمزة الذي أرّخ للصحافة وعالج فنونها أستاذا ومؤلفا وقد صدر هذا الكتاب عن دار الفكر العربي .

• من كتب التراث التي حققت أخيرا « نفحة الريحانة وذيل نفحة الريحانة » للمحبي وقد صدر في ستة أجزاء بتحقيق الأستاذ عبد الفتاح محمد الحلو عن مكتبة عيسى البابي الحلبي و « اللب واللباب في غريب اللغة والحديث والكتاب » للشيخ محمد رضا العزاوي وقد حققه الأستاذ السيد أحمد الحسيني ، ونشرته مطبعة الآداب في النجف ، كما أعدّ الأستاذ محمد قنديل البقلي كتاب « فهارس صبح الأعشى للقلقشندي » وراجعه الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، وتولت نشره دار عالم الكتب .

• أصدر الأستاذ سعد الدريبي العدد الأول من كتاب « القبس » ، وهو دوري شهري يعنى بنشر العلوم والفنون والآداب ■

كتب مُهداة

حظيت مكتبة القافلة مؤخرا بالمؤلفات التالية

• « الاسلام يتحدى » مدخل علمي للايمان ، تأليف الأستاذ وحيد الدين خان ، وتعريب ظفر الاسلام خـــان ، ومراجعة وتحقيق الدكتور عبد الصبور شاهين .

• « بحوث في الربا » للأستاذ محمد أبو زهرة .

• الفهرس الهجائي لكتاب « المغني » لابن قدامة في فقه الامام أحمد بن حنبل ، وهو من اعداد الاستاذ محمد سليمان الأشقر .

• « القرآن والقصة الحديثة » للأستاذ محمد كامل حسن .

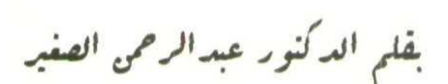
• « بلاد زهران في ماضيها وحاضرها » . وهو دراسة شاملة للأستاذ محمد مسفر حسن الزهراني .

• « رحلة تنغليك الى المشرق » ترجمة الأستاذ محمود العابدي .

• « الشعر العربي في المهجر الأمريكي » وهو دراسة تحليلية للأستاذ وديع ديب ■

العنصر البشري
وتأثيره على تطور الانتاج الزراعي


الطماطم من المحاصيل الزراعية التي تنمو بنجاح في المملكة العربية السعودية .



يرتبط تطور الانتاج الزراعي ارتباطا مباشرا بانماء العنصر البشري ، لذا كان لزاما اختيار العناصر البشرية المؤهلة تأهيلا علميا لتأخذ على عاتقها مهمة رسم الخطة العلمية الزراعية المناسبة للبلاد . تلي ذلك مرحلة تطوير (Modernization) الفنيين والمرشدين الزراعيين بصورة متواصلة تتفق مع تطور العلوم الزراعية وذلك بتدريبهم على تفهم نتائج الأبحاث العلمية وتعميمها على المزارعين . على أن من أهم مقوّمات الانماء الزراعي هو تطوير عقلية المزارع نفسه وحثه على المواظبة على العمل عن طريق اطلاعه على نتائج الأبحاث التي تقوم بها المراكز العلمية أو الجامعات المحلية ، وتمكينه من تكييف ما تنتجه مختبرات البحث العلمي في الخارج ليأتي مطابقا لطبيعة الأرض والمناخ وذلك بواسطة المرشدين الزراعيين ، أو عن طريق وسائل الاعلان المختلفة .

هناك عوامل كثيرة تساعد الى حد كبير على تطوير الانتاج الزراعي ، أهمها ما يأتي :

العامل الوراثي

ان العامل الوراثي أو التكويني لنوع ما من أنواع البذور يعد من الخطوات الأساسية المهمة لرفع مستوى الانتاج الزراعي . فأنواع البذور المنحدرة من السلالات المحسنة التي تأقلمت مع الظروف البيئية ، تفضل الأصناف العادية في قدرتها على الانتفاع من الماء والغذاء وضوء الشمس ، وكذلك في قدرتها على مقاومة الآفات الزراعية والأعشاب الضارة . ومن ميزات هذه الأصناف المحسنة أيضا أنها تستطيع التفاعل بسهولة مع مختلف عمليات التسميد والري ورش المبيدات الكيماوية والمنشطات الهرمونية التي تؤثر عادة في زيادة الانتاج .

لذلك ينبغي القيام بتربية سلالات جديدة من المحاصيل المحلية ، ودرس خصائصها الوراثية وامكاناتها الانتاجية ، واختيار أنواع البذور ذات الجودة العالية والتي لها القدرة على المقاومة لمختلف الآفات الزراعية والأعشاب الضارة ، كما ينبغي القيام بالتجهيزات اللازمة لأنواع البذور المحسنة قبل الاهتمام بالتسميد والري وعمليات المكافحة .

معالجة التربة

أثبتت التجارب العلمية التي أجريت في مختلف مراكز الأبحاث الزراعية في العالم بأن تسميد التربة تسميدا جيدا يساعد على زيادة الانتاج وتحسين نوعية المحصول ، مما يدل على أن التسميد له اهمية كبيرة في زيادة الانتاج لا تقل عن أهمية العامل الوراثي نفسه .

وقد دلت هذه التجارب على ان مادة النيتروجين هي من أهم المواد المغذية التي ينضب مخزونها في الأرض نتيجة تكرار الزرع ، تليها بعد ذلك مادتا الفوسفور والبوتاس . ومن المواد الأخرى المغذية التي يحتاج اليها النبات بكميات ضئيلة لاكتمال نموه ، الزنك (Zinc) والبورون (Born) والمغنيزيوم (Magnesium) والمنغنيز (Manganese) . ويستحسن دائما القيام بفحص التربة والنبات ، ومعرفة كميات المواد المغذية المتوفرة فيها قبل البدء بعملية التسميد ، وذلك للتعويض عما ينقصها من هذه المواد باضافة المزيد منها بواسطة الأسمدة الكيماوية والعضوية . ويفضل دائما الاكثار من استعمال الأسمدة العضوية في الأراضي الرملية الصحراوية المستصلحة .

استعمال مياه الري

يعتبر الماء عنصرا مهماً من عناصر الحياة النباتية ، وهو يؤثر الى حد كبير في زيادة الانتاج ونوعيته ، غير أن عدم استعمال المياه بالطريقة الصحيحة لا يسمح للعامل الوراثي أو لعامل معالجة التربة بزيادة الانتاج ،

وتحفظ الماء في خلايا النبات الداخلية مما يساعدها على تحمل العطش . ومن ناحية أخرى ، يقوم علماء علم الوراثة بايجاد أصناف من البذور تنحدر من سلالات مقاومة للعطش وذات انتاج عال ، مما يمكّن الكثيرين من مزارعي المناطق القليلة الأمطار من مضاعفة محاصيلهم المزروعة في الأراضي البعلية .

ولتحقيق الغاية نفسها يجب القيام بطرق الري المختلفة لسد حاجات الزراعة من المياه . فبالاضافة الى حفظ المياه وتخزينها على سطح الأرض أو في جوفها أو في مجمعات خاصة من المنحدرات والسفوح في رقع زراعية محدودة (Water shed management) ، تقوم بعض البلدان بانشاء محطات لتحلية مياه البحر وباستخدام المطر الاصطناعي ليساعد على انماء الموارد المائية .

ومن مشاكل الري التي تحدث في أنحاء مختلفة من العالم ، ان المياه الجوفية القريبة من الشواطيء البحرية تحتوي على نسب كبيرة من الأملاح وذلك بسبب تسرب مياه البحر الى الطبقة الجوفية التي تحفر فيها الآبار ، الأمر الذي يقلل من صلاحية هذه المياه لاستخدامها في أغراض الري . وقد يمتد تسرب هذه المياه الملحة أحيانا الى مسافة كيلومترين داخل الأراضي الساحلية ، وذلك نتيجة لكثرة الآبار المحفورة في منطقة واحدة ، مما يجعل الضغط في الطبقة الجوفية أقل منه في المنطقة الساحلية ، فينجم عن ذلك تسرب مياه البحر الى هذه الآبار .

وللتغلب على هذه المشكلة يجب وضع خطـة لتحديد عدد الآبار المسموح بحفرها في منطقة معينة ، ثم تحديد كميات المياه التي تضخ من هذه الآبار ، وكذلك تحديد موعد ضخها . فلقد تبين من خلال الدراسات التي أجريت موءخرا في عدد من الجامعات بأن ملوحة المياه تزداد بازدياد كميات الضخ في أشهر الصيف ، كما انها تزداد تبعا لازدياد عدد ساعات الضخ في النهار . لذلك يستحسن دائما ضخ المياه لفترة تتراوح بين أربع وخمس ساعات في الصباح فقط ، ثم التوقف قليلا ريثما تعود نسبة الملوحة الى طبيعتها .

مكافحة الأعشاب الضارة والآفات الزراعية

ان الطاقة الانتاجية للمحاصيل الزراعية المنحدرة بذورها من سلالات محسّنة ، تتوقف ولا شك على الجهود التي تبذل في مكافحة الأعشاب الضارة والآفات الفتاكة وذلك بزرع بذور تنحدر من سلالات مقاومة للأمراض والحشرات ، وباستخدام الوسائل الميكانيكية والتربوية والبيولوجية . ولعل أفضل هذه الوسائل في اعطاء نتائج ملموسة وسريعة هي استعمال المبيدات الكيميائية بيد انها تتطلب حرصا وعناية بالغتين من قبل مستخدميها ، وذلك تفاديا للأضرار الصحية التي تنجم عن رواسب هذه المبيدات بعيد عملية الرش ..

مكافحة الأعشاب الضارة

تعد الأعشاب الضارة من المشاكل الرئيسية التي تتعرض لها زراعة المحاصيل والأشجار المثمرة . وذلك لأنها تنافس النبات في الغذاء والماء وفي الحصول على قسم وافر من أشعة الشمس مما يسبب نقصا في كمية المحصول وجودته وزيادة في تكاليف انتاجه .



أحد الخبراء الزراعيين يتفقد محصول الباذنجان في احدى مزارع المنطقة الشرقية .

وذلك لأن التفاعل الذي يتم بين جميع هذه العوامل معا يساعد على تحقيق هذه الزيادة المتوخاة .

وتقوم مراكز البحث العلمي في أجزاء كثيرة من العالم بدراسة كميات المياه المتبخرة من التربة والنبات (Evapotranspiration) وذلك لتقدير متطلبات المزروعات من المياه وخاصة خلال مراحل النمو التي تمر بها النباتات في الأقاليم المختلفة . وتستعمل في هذه الدراسات عادة أجهزة ليسيميتر (Lysimeter) وأحواض خاصة لقياس كميات المياه المستعملة بالاضافة الى استخدام أجهزة الرصد الجوي الزراعي .

أما بشأن الطرق المتبعة في الري ، فان جر المياه بواسطة الأتلام لا بد أن تسبقها عملية تحضير وتقويم (Grading) كي تصبح الأتلام صحيحة الانحدار ، وبذلك تمتلىء الطبقة الجذرية بما تتطلبه من مياه دون الاضرار بها . أما تكون الانخفاضات في الأتلام (Water Logging) فيسبب الاختناق في الجذور .

ويعتبر استعمال المرشات (Sprinkler) في أغراض الري طريقة عملية توفر على المزارع كثيرا من المياه ، ولا تحدث انجرافا للتربة نظرا لتسرب المياه الى الجذور بشكل طبيعي وذلك لتشابه طريقة الري هذه بزخات المطر الطبيعي . وقبل البدء باستخدام هذه المرشات يجب القيام بسلسلة من التجارب المحلية لتحديد أنسب الأوقات للري ، خاصة وان هذه العملية تتأثر الى حد كبير بسرعة الرياح واتجاهها . ففي المناطق المكشوفة ينبغي استخدام المرشات خلال الليل حينما تكون الرياح خفيفة . أما في الأماكن التي تستخدم فيها الحواجز الواقية من الريح فان توقيت الري فيها يعتمد على المزارع نفسه .

ولزيادة انتاج المحاصيل في المناطق الحارة حيث يوجد نقص كبير في كمية المياه اللازمة لنمو النبات ، تجري الآن دراسات حول استعمال المواد المضادة للنتح (Antitranspirant) وهي من نوع « البلاستيك » المسال الذي ترش طبقة خفيفة منه على الأوراق لتقلل من عملية التبخر أو النتح



جانب من مزرعة للخضراوات في المنطقة الشرقية وهي من المزارع التي كان للعنصر البشري أثر في تحسين منتجاتها .

مكافحة الأمراض الزراعية

ان الأمراض النباتية التي تعتري مختلف المزروعات تسبب تدنيا ملحوظا في الانتاج . فدراسة مسببات الأمراض وطرق معالجتها وقائيا أو علاجيا ثم ايجاد السلالات النباتية المقاومة لهذه الآفات الزراعية ، تساعد على رفع مستوى انتاج المحاصيل وتحسين جودتها .

مكافحة الآفات الزراعية

ان مكافحة الحشرات الضارة بالمزروعات تساعد على زيادة الانتاج وتحسين جودة المحاصيل وتشجيع تصديرها للخارج. ومثال على ذلك فان ذبابة البحر الأبيض المتوسط والنمشات القشرية التي تصيب الحمضيات تعيق تصدير هذه المنتوجات للخارج .

استعمال الآلات الزراعية

ان تدفق أهالي القرى الى المدن ، وغلاء اليد العاملة وعدم توفرها عند الطلب يتسبب في زيادة تكاليف انتاج المحاصيل . لذلك يستحسن استخدام الآلات والمعدات الزراعية لا سيما في الحقول المتسعة التي تزرع فيها الحبوب والشمندر السكري والبطاطا ، وكذلك في زراعة البساتين ، كما يستحسن دائما استخدام الآلات الصغيرة للزرع والتفريد والحصاد ، والجرارات الصغيرة في بساتين الأشجار المثمرة .

تطعيم البذور البقولية

من المعروف عن فصيلة البقوليات ان باستطاعتها تثبيت النيتروجين الموجود في الهواء وتحويله الى مادة نيتروجينية (نيترات رقم — ٣) مغذية تستطيع الجذور امتصاصها بواسطة أنواع خاصة من البكتيريا التي تعيش في درنات (Nodules) ملتصقة بها . فاذا صادف عدم توفر النوع الخاص من البكتيريا اللازم لتثبيت غاز النيتروجين في التربة المحيطة بجذور أحد أصناف البقوليات ، فــان مستوى المحصول الانتاجي يكون منخفضا .

لذلك ينصح بتشجيع المزارع على تطعيم بذور البقوليات من عدس وحمص وفول وفصة وكرسنة وغيرها بالنوع الخاص من البكتيريا التي تستطيع تثبيت نيتروجين الهواء في الجذور وذلك بالتكافل (Symbiosis) مع هذه النباتات . مما يغني المزارع عن اللجوء الى عملية التسميد الكيماوي من مادة النيتروجين .

البيوت البلاستيكية

تساعد البيوت الزجاجية على انتاج المحاصيل في غير مواسمها ، مما يدر على المزارع ربحا عاليا نتيجة تسويق هذا الانتاج الباكوري . وقد حلت هذه البيوت المصنوعة من البلاستيك محل تلك المصنوعة من الزجاج نظرا لانخفاض تكاليفها . ومن ميزات هذه البيوت أنها تساعد على انتاج مختلف أنواع الخضار والأزهار المبكرة في غير مواسمها . لكونها تحفظ الرطوبة ودرجة الحرارة اللازمتين لنمو النباتات . هذا ويمكن استعمال الغاز لتوفير الدفء داخل هذه البيوت عند الحاجة مما يوفر ثاني أوكسيد الكربون الناتج عن احتراق الغاز ، فيساعد بذلك على زيادة نشاط عملية « التمثيل الضوئي – Photosynthesis » . وبالاضافة الى ما تقدم، يمكن استعمال التراب أو المواد الاصطناعية مثل «الفرمكيولايت – Vermiculite » أو « المحاليل المغذية – Hydroponics » ووضعها في أحواض خاصة لزراعة الخضار في هذه البيوت البلاستيكية . وجدير بالذكر أن المحاليل المغذية قد استعملت منذ سنوات في بعض بلدان الخليج العربي لانتاج الطماطم على نطاق تجاري ■

تصوير : علي محمد خليفة ، وعلي عبد الله خليفة



الفلفل الأخضر من المنتجات الزراعية الناجحة في المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية .. راجع مقال (العنصر البشري وتأثيره على الإنتاج الزراعي) تصوير: شيخ أمين



الوسائط الكيماوية تلعب دوراً فعالاً في تهذيب المنتجات
البترولية وتحسين مواصفاتها . راجع مقال (التهذيب بالوسيط الكيماوي)